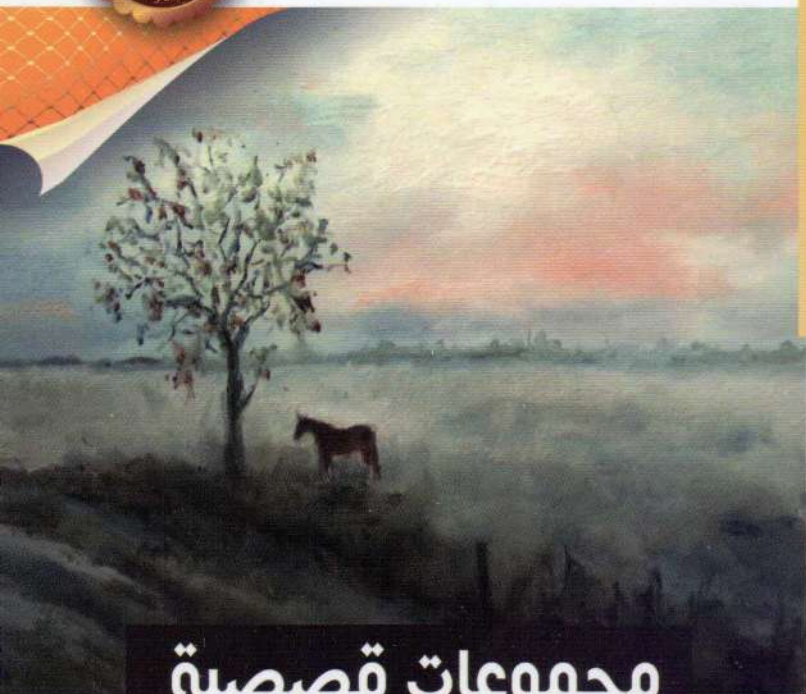




روايات د نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



مجموعات قصصية

فارس هوازن

Hawazen's Knight

عبد الرحمن

Dr. Naguib Al Keilany

روايات رشيد الكيلاني

من إصداراتنا



Design by Abdul Rahman Magdy

الصحوه
ALSAHWAH

دار الصحوة للنشر والتوزيع
تليفاكس: +20242106060
Email: dar.alsawah@gmail.com

عالم المعرفة
الجزائر

تليفاكس: 021.20.56.62
في ياحة 03 فيلا 07 نامريس - لعمدية - الجزائر
Email: alemeimaarifa@yahoo.fr

روایات نجیب الکیلانی

فارس هوازن

وقصص آخری

د. نجیب الکیلانی

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للنشر

١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٩١٣٦

الترقيم الدولي:

978-977-255-360-0



دار الصحوة
DAR AL SAHOB

للنشر والتوزيع

٥ عمارة فريد - من شارع مجلس

الشعب - السيدة زينب

تليفون: ٠٠٢٠٢٣٣٩٢٧٧١٨

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٣٣٩٢٧٧١٧

daralsahob@gmail.com

فارس هوازن

شباب ومال وسلطان عريض، وشجاعة مفرطة، ذلك هو مالك بن عوف زعيم قبائل «هوازن» لم يكن قد تخطى الثلاثين من عمره، لكنه كان حاسم الرأي، قاطع الكلمة لا يطيق الجدل، ويكره أن يعارضه أحد، لا يأتي عملاً من الأعمال إلا ويتجلى فيه حماسه وإخلاصه . . حتى ولو كان يمضى فى طريق الخطأ، لا تراوده الشكوك فى رأى ارتآه . . . ويكره أن يطيل التفكير فى شيء مهما كان خطره .

لكن الأمر هذه المرة جد مختلف . . لقد انتصر محمد، وفتحت له «مكة» أبوابها . . أصبحت كلمة المسلمين هى العليا، وليس أمام «مالك بن عوف النصرى» سوى أن يدين بالطاعة لمحمد رسول الله، أو يحشد هوازن لضرب المسلمين والاحتفاظ بسلطانه وكبريائه . . لا بد أن يختار مالك أى السيلين .

ولم يستطع أن يخفى ما انتابه من قلق وتوتر، على الرغم من أنه

كان يحاول أن يضحك ويسخر ويثرثر، لكن محاولته كانت تدعو إلى الرثاء فقد أبانت عن همومه واضطرابه ..

قالت زوجه وهي تراه يزرع المكان جيئة وذهاباً:

- «فيم تفكر؟».

- «الحرب... ولا شيء غير الحرب يا امرأة...».

- «أعتقد أن من اليسير هزيمة محمد؟؟».

- ولم لا.

- «قريش سلمت له...».

قهقهه ساخرًا:

- «ومن قريش؟؟».

كان واضحاً أنه يغالط نفسه، وهي تعرف زوجها، إن داء الغرور يتحكم فيه، ذلك الداء يجد في قلب مالك مرتعاً خصباً، أليس شاباً قوياً وفارساً شجاعاً، وسيداً مطاعاً؟

وكانت زوجه قد علمت أن شيخ هوازن الطاعن في السن «دريد ابن الصمة»، المعروف بحكمته وسداد رأيه، وماضيه الحافل بالأمجاد كانت تعلم أن «دريداً» هذا لا يميل إلى الحرب، ومن ثم قالت بصوت خافت:

- «وما رأى دريد بن الصمة؟؟» .

وعلى الرغم من خفوت صوتها، وتأديبها فى الحديث، فقد اشتعل مالك ثورة، واحتقن وجهه بالغضب، وهتف:

- «لا تذكرى اسمه . . لقد انتهت أيامه . . وأيام أمثاله . .» .

وساد السكون برهة، ثم مضى فى حديثه:

- لقد أصبح هرماً . . كلما تقدم به العمر تضاءلت شجاعته، وتحولت أفكاره إلى آراء تشبه آراء الصبية . . دريد بن الصمة عجيبة رخوة من التردد والخوف والجمود .

ودق الأرض بقدمه فى قوة، وهتف:

- لن يستقيم أمر قومنا إلا إذا تولى أمره رجل قوى ثابت الرأى والجنان . . هذا هو الطريق كى نتسلم مراتب المجد .

قالت زوجه مطأطئة رأسها:

- «لكنك لا تنكر خبرته الطويلة وإخلاصه المعروف، وسداد رأيه» .

جذبها من كمها فى تحذُّر، وقال:

- «لكل دولة رجال . .» .

- «إنك تظلم الرجل» .

عاد يقهقه .

- «وكلما نظرت إلى وجهه المغضن وشعره الأشيب، وعينيه الكابيتين تذكرت الموت . . والقبر . . والهيكل المبعثرة فوق الرمال . .» .

قالت في استسلام : «الأمر لك» .

رماها بنظرة حاقدة ، وقال بعينين محمرتين :

«إننى أكره الخوف . . أكره التردد . . إننى أكرهك أنت الأخرى . .» .

شحب وجهها ، وتندت عيناها بالدموع ، وقالت فى أسى :

«أعرف ذلك . . لكن ألم تفكر فى سبب يدفعك إلى إشعال الحرب؟؟» .

قال :

- «لا أريد أن أدين بالفضل لأحد إلا لسيفى . .» .

- «وماذا؟؟» .

- «ولأنى أرفض أن أتلقى هداية من أحد . . ليس هناك إله إلا الذى اختاره لنفسى . .» .

- «معنى ذلك أن تبقى دائماً فوق الآلهة؟؟» .

قال دون اكتراث :

- «أجل . .» .

وأخذ يجفف عرقه ، وهو يستطرد :

- «لن يدخل هوازن دين جديد . . ولا نبى . . ستبقى هوازن هوازن . . شامخة قوية تحوطها السيوف ، وتحميها الأذرع القوية . . ولن تستطيع ملائكة محمد أن يدخلوها» .

وخطا نحوها خطوات قليلة ، ثم رفع ذقنها ، ونظر إليها باستغراب قائلاً :

- «وما دخل النساء فى أمر كهذا؟» .

- «لأنى أريك أن تبقى . .» .

- «هذا شأنى . .» .

- «إنك لنا . . ولهوازن» .

- «كل شئ لى . . هوازن بمالها ورجالها وأنعامها . . وأنا سيدها» .

جمعت أمرها ، وقالت فى شجاعة :

«أنت بدون هوازن لا شئ . .» .

قال دهشاً :

- «كيف؟؟».

- «إن سيفاً واحداً لا يستطيع أن يخضع الرقاب، وهوازن برغم كل شيء تحبك . . هذا الحب هو سر سلطانتك ووجودك . .».

- «تضحكني حكمتك . . إنها تذكرني بهذيان «دريد بن الصمة» . . ومع ذلك فإنني سعيد بذلك الحب . . وهو دليل أكيد على أنني قادر أن أشق طريقى إلى النصر والمجد . .».

- «ألا تفكر فى مصير من يحبونك؟؟».

هدر فى صبر نافذ:

- «قلت لك النصر . . والمجد . . أى شيء أعظم من ذلك؟؟».

وانهمرت دموعها بغزارة، ثم ألقت بنفسها على صدره، متشبثة بشيابه، وكانت تقول:

- «قلت منذ قليل إنك تكرهنى . . ومع ذلك فأنا أحبك . . وأتفانى فى خدمتك وإسعادك . . لبيتك أرقى دمي قبل أن تتفوه بهذه الكلمات . . الموت أهون منها . .».

انتعش قلبه، وترنحت أعطافه بشعور مبهج، ورفع رأسه فى تعال وغرور، وقال:

- «كثيرات أولئك اللاتي يلثمن التراب الذى أمشى عليه، ويحلمن بنظرة ود وحنان . . كلهن تعرفن من هو مالك بن

عوف . . إلا أنت ، دائماً تصرين على مجادلتى . . بل والاعتراض
على تصرفاتى . . » .

قالت محزونة :

- «أعتبر كل من بادلِكَ الرأى عدواً يستحق الكره . . ؟» .

- «بكل تأكيد . . » .

- «هذا مقياس خاطئ أيها الحبيب . . إننى لا أفكر إلا فى
سلامتك ، الذين يخدعونكم هم العدو . . الذين يهتفون باسمك
أغلبهم منافقون . . إنهم يحسدونك ويحقدون عليك ، ويتعشقون
اليوم الذى يرونك فيه قد تعريت من كل سلطة ومجد وحب . .
صدقنى . . » .

دفعها فى ازدراء ، ومضى خارجاً . .

حينما غادر المكان لقيه أحد عبيده قادماً على جواد ، وما إن
ترجل حتى هتف به «مالك» قائلاً :

- «كيف وجدتها؟؟» .

قال العبد منكس الرأس :

- «إنها تعتذر عن لقاء مولاي الليلة» .

استشاط مالك غضباً ، وصاح فى وجه العبد :

- «اغرب عن وجهي» .

كان قلبه يخفق في عنف، أليس غريباً أن تتأبى عليه امرأة؟؟
وآية امرأة؟؟ تلك الأرملة الغريبة الشأن «عاتكة بنته مويهب» .
مات أبوها وإخوتها في غارات للثأر، ومات زوجها دون أن تنجب
بالطريقة نفسها، ولم يبق سوى أمها العجوز، فهجرتا الديار،
ولاذتا إلى مكان قصي قرب جبل «حنين» نصبت فيه خياماً،
ومعها بعض الخدم والعبيد، وعدد من الشاء والإبل، جوار عين
صغيرة تفيض بالماء العذب .

والحقيقة أن عاتكة امرأة غريبة الشأن، متقلبة المزاج، مثيرة ذات
جمال أثر، وحديث مؤرق وعناد عجيب، لعلها الإنسان الوحيد
الذي استطاع أن يعيث بعواطف مالك، ويجرعه العذاب والخيرة،
ويلهب روحه بسياط الحرمان . . وما أقل ما كان يشعر بالحرمان في
حياته، فكل ما يطلبه فهو مجاب . . لا يعرف التردد أو اليأس، إرادته
أقوى من الفشل والرهبة . . لكن ها هو أحد عبيده يعود، ويواجهه
برفضها . . أهنالك امرأة تستطيع أن ترفض لقاء مالك بن عوف؟؟

ولم يطل به التفكير، فركب جواده وانطلق عبر الدروب، دون
أن تصحبه كوكبة من الفرسان . . لم يكن أحد يتصور أنه في ظل
الاستعداد الحربي الكبير يمكنه أن يفكر في شيء غير الحرب . . .



حين بلغ خيمتها، قالت إحدى الجوارى :

- «إن مولاتى لا تستقبل أحداً اليوم . .» .

نحاهما فى غلظة، وأزاح ستاراً صغيراً فوجدها متكئة على
وسادة قائمة، وعيناها الواسعتان ذات الرموش الطويلة، ترمقانه فى
استعلاء، كان خداهما يتوقدان احمراراً، وسمرة وجهها الخفيفة
تشعر جمالاً أسراً، وغدائرها السوداء تغمر كتفيها الممتلئتين وتتدلى
على صدرها المكتنز، كان ينوى أن ينقض عليها ركلاً وضرباً، لكن
نظراته الغاضبة، استحالت إلى رقة وضراعة واستسلام وهمس :

- «طاب مساؤك يا عاتكة . .» .

قالت فى اقتضاب :

- «أتدخل مسكنى عنوة؟؟» .

- «إن سيد هوازن أتى طائعاً ينشد رضاك . .» .

- «أجئت محارباً أم طالب ود . .؟» .

- «بل متعبداً لجمالك، طالباً الصفح . .» .

- «فقيم الحديث عن هوازن؟ أنا لا أعرف سوى مالك بن

عوف . .» .

- «مالك خادملك المطيع . .» .

- «لكنى لا أريدك الليلة» .

- «لماذا يا عاتكة؟؟» .

لم تتحرك من رقدتها، وقالت فى ثقة :

- «لأنى أريد الوحدة» .

- «إنك تعذيبينى» .

- «هذا ضرورى» .

- «ولماذا؟؟» .

- «لا حياة بلا عذاب» .

وخطا نحوها فى وجل وبدا الشحوب على وجه الفارس
العملاق ابن الثلاثين، وجلس إلى جوارها متأدباً مرتجفاً، وتمتم :

- «لا أطيق البعد عنك . .» .

- «وأنا لا أقبل أن تطاردنى كل مساء» .

- «أنا أحبك» .

- «فلتحترم إرادتى» .

- «لا أستطيع .» .

ابتسمت، ثم لمست يديه المرتجفتين، وقالت :

- «ماذا تريد؟؟» .

- «أريد أن أجعل منك سيدة هوازن المرموقة» .

- «أنت تعتقد أن في ذلك تكريماً لى» .

- «لا شك» .

- «لكنى أرفض» .

- «لم؟؟» .

- «أكره القيود . .» .

- «نتزوج . .» .

- «أسمع هذا الكلام للمرة الألف ، أنا لا أبغى الزواج» .

أمسك بيدها اللدنة فى ضراعة ، وقال :

- «إننى حائر . . . ترفضين الزواج ، وتضنين على بجمالك . .

أين الطريق إلى قلبك . .؟؟» .

هزت كتفها فى دلال قائلة :

- «لا أعرف . .» .

تطلع إلى مفاتها الصارخة بالتحدى والتأبى ، فاجتاحته موجة

من الضيق والعجز ، فضغط على يدها دون وعى ، فصرخت :

- «ستحطم يدي».

تلعشم، ثم سحب يده، ودار بنظراته الحائرة فى جنبات الخيمة
الخافتة الضوء، وتمتم:

- «إننا نكاد نكون متلاصقين، لكن أشعر بأن بينى وبينك بُعد ما
بين المشرق والمغرب... وهناك فى بيتى تملئين عالمى، ورائحتك لا
تفارق خياشيمى... أنت ساحرة...».

شبكت يديها، ثم تمددت ووضعتهما تحت رأسها، وقالت:

- «مملكتى الصغيرة هنا أعظم من سلطان هوازن».

- «أنت ترجحين الدنيا بكاملها...».

- «أنا أحب الوحدة، وأكره الناس...».

- «وأنا؟؟؟».

لم تجب على تساؤله، واستطردت:

- «أنا أحتقر الناس جميعاً... أحتقر أفكارهم... وتقاليدهم...».

وأكره قوتهم وضعفهم... وغناهم وفقيرهم...».

ثم هبت من رقدتها، وأخذت تدفعه بغتة قائلة:

- «اخرج... اخرج... لا أريد أن أرى أحداً...».



بقى عتيباً كالصخرة، وحط على قلبه حزن عميق أسود، بينما
أخذ يخفق بشدة ووجهها الشرس الغاضب المتوتر يفيض إثارة،
ويولد في نفسه رغبة محمومة .

قال مهدداً :

- «إننى أستطيع أن أسفك دمك بسيفى هذا» .

أخذت تضحك وتضحك، والدموع فى عينيها، وجسدها كله
يهتز مع ضحكاتها، وقالت :

- «وبعد . . .» .

- «أستريح إذ أنتقم لعجزى وكبريائى . . .» .

وهمست فى استهتار :

- «يا طفلى العزيز . . إن دمي إذ يسيل إنما يزيدك حسرة
ويأساً . . ولن تجنى سوى الحرمان . . والحرمان فى هذه الحالة
سيكون أزلياً طويلاً . . لا نهاية لعذابه . . .» .

ثم رمقته بعينين متمردتين :

- «لا تذكر الدم والسيوف مرة ثانية وإلا بصقت فى
وجهك . . .» .

أخذلتوه، وضايقته كلماتها العارية من كل أدب، وتمتم :

- «إن فيك قحة . . .» .

- «ولذا فأنت تحبني . . .» .

- «لم أسمع مع إنسان لهذه الدرجة . . .» .

- «والقوة ليست في السيف والذراع . . .» .

ثم هزت كتفها مستطردة :

- «أنا لا أملك قوة بدنية ولا سيفاً . . .» .

ثم ركزت نظراتها في وجهه المتوتر، وقالت :

- «ومع ذلك فأنا أقوى منك . . .» .

قال مالك :

- «هل أنت مجنونة؟؟» .

قالت :

- «أنا أكره الزيف والغرور والنفاق، فكيف يأتيني الجنون؟؟»

وصفقت يديها، فأنت الجارية مهرولة، فقالت عاتكة وهي تعود إلى اتكائها على وسادتها :

- «كأساً لسيد هوازن . . لا شك أنه قد استبد به الظمأ» . .

كان في حيرة من أمرها، تبش في وجهه، ثم تعود فتعبس وتقربه منها، ثم تصده عنها، يشعر أحياناً أنها حبه وتبدى الارتياح

لوجوده، وأحياناً أخرى يصاب باليأس ويخيل إليه أنها تكرهه، وتكره التراب الذى يمشى عليه، وفى حضرته ينتابه الضعف والشك، ويفقد الثقة بنفسه وبأرائه، كلماتها جارحة وأراؤها غريبة، ترفض أن ننصاع لرأيه، فيذوب تصميمه وتتلاشى إرادته، حاول أن يتخذ منها عشيقة ففشل، أبدى استعداداً للزواج فرفضت، إنها تلهو به بين اليأس والرجاء، وتحيل حياته إلى قلق مشتعل لا يهدأ أواره. . . رشف من الكأس رشفات، فسمعها تقول: - «سمعت أنك تحشد قبائل هوازن ونصر وثقيف وجشعم لحرب محمد. . .».

- «أجل. . .».

قالها فى فخر واعتزاز.

قالت فى هدوء:

- «أو تنجح فيما فشلت فيه قريش واليهود؟؟».

- «لا يساورنى أدنى شك فى ذلك».

- «وإذا هزمت. . .».

- «لم يرد هذا الاحتمال لى على بال. . .».

- «إذن فأنت لا تعرف ما الحرب. . .».

- «الحرب شجاعة وصبر وإصرار . .» .
- «قد يكون الانسحاب ضرباً من الشجاعة» .
- «هراء . . الحرب كر . .» .
- «من لا يعرف المزاوغة والكر والفر فهو ليس بقائد . .» .
- وقبل أن يعلق على كلماتها، هتفت بصوت جريح حزين:
- «أتدري لماذا أرفض الحب والزواج؟؟» .

قال فى لهفة:

- «لماذا؟؟» .

- «لأنى أخاف أن يأتى يوم ثم أبحث فيه عنك فلا أجذك» .

وسالت دموعها، وهى تستطرد قائلة:

- «كنت أحب زوجى حباً لا مثيل له . . أبتسم للفجر الوليد . .
وأنعش قلبى بنسيم الماء . . وأكل وأشرب . . ونمرح فى حلم
جميل . . آه . . واقتتل الحيان من أجل صبية يلعبون فى المراعى
وسط الإبل والأغنام . . وأخذ الرجال يتساقطون . . قضى على كل
عشيرتى . . ومات زوجى فى النهاية . . أتوا به جريحاً . . نظرت
إلى وجهه الفتى وهو يودع الحياة . . كنت أقرأ فى عينيه رغبة
جامحة للتشبث بالحياة . .» .

ثم أخذت عاتكة تلوح بيدها فى ثورة وكأنها تخاطب زوجها:

- «أيها الأحمق . . لم تريق دمك بلا معنى؟؟ لماذا تهدم عشنا الجميل من أجل صبية يلعبون . . آه . . الشرف الكرامة . . أية كرامة . . وأى شرف . . فى صبية يختلفون أو يتعاركون وهم يلعبون . . ؟» .

كان مالك يستمع إليها وهو مطأطئ الرأس . . ثم أخذت تحفف دموعها، وتقول:

- «إننى أتمنى أن ينتصر محمد . .» .

وانتفض مالك كمن لدغته حية . . وتصبب عرقاً وكلماتها ترن فى أذنه «ينتصر محمد» . . «ينتصر محمد» . . «ينتصر محمد» . . ودون أن يشعر وجد يده تمسك بمقبض سيفه وتسله بسرعة من غمده . .

أخذت يد مالك تسحب السيف من غمده، وهو فى هياج شديد، بينما كلمات عاتكة تدوى فى أذنه . . «أتمنى أن ينتصر محمد» . . «ينتصر محمد» . . ونظر نحوها بعيون أعماها الغضب والحقد، ولكنها كانت ثابتة، تنظر إليه بهدوء . . كانت النظرة التى فى عينيها أقوى من غضبه، وأخذت يده تعود بالسيف مرة أخرى إلى غمده . . وقال كمن يريد أن يكذب أذنه، أو كمن يتمنى لو تراجعت عما قالته:

- «ماذا؟ ماذا تقولين؟» . .

ولكنها قالت بثبات:

- «صدقني . . إنني أتمنى اليوم الذي أعتنق فيه دعوة

محمد . . .»

- «أنت تهذين» .

لم تكثر لكلماته، واستمرت في حديثها:

- «مَنْ كان يصدق أن الثارات القديمة سوف تخمد بين الأوس

والخزرج؟؟ أخى بين الجميع . . بين المهاجرين والأنصار . . إنه لا

يحارب من أجل ناقة سرق، ولا شاة ذبحت، ولا صبية يلعبون

ويضطرون . . ولا يسفك الدماء من أجل بثر ماء عذب . . الشرف

والكرامة عنده لهما معنى آخر يملأ القلب، ويمتع الفكر . . .»

هَبَّ «مالك بن عوف» واقفاً، وهتف:

- «ما جئت لأتلقى على يدك تعاليم محمد» .

- «أنا لم أدعك للمجىء . . ولك أن تسمع كلماتي أو

تتصرف . . وجودك أو عدمه لن يكون ذا أثر على آرائي . .

ونستطيع أن نخطو خطوات قليلة، وستجد نفسك بعدها فى عرض

الصحراء . . أم تراك فى حاجة لمن يأخذ بيدك؟؟» .

تحسّس مقبض سيفه وظل جامدًا، ثم سمعها تقول:

- «لدينا لبن وتمر».

إنه لا يميل إلى هذا الخليط، وكلما أتت به زوجته، تناول قليلاً منه، وسرعان ما تعافه نفسه، لكنه هنا يجد لذة كبرى في تناول أى طعام تقدمه له، ولم تنتظر عاتكة رأيه، بل صفقت بيديها، فهرولت الجارية قادمة، ثم أمرتها بأن تحضر اللبن والتمر، وما إن انصرفت الجارية حتى رأت «مالك بن عوف» يجلس في استسلام وهدوء.. وسادت فترة صمت قال مالك بعدها:

- «لا سبيل سوى الحرب».

- «بل هناك البديل...».

- «ماذا؟؟».

- «أن نفتح قلوبنا لكلمات محمد».

- «كيف؟؟ يا للعار!».

- «أى عار.. لن نخسر شيئاً».

- «سيقول الناس إن مالك بن عوف جبان.. وستقول هوازن

إن «دريد بن الصمة» كان على حق.. وستسخر منى زوجتى.. وأنت! ماذا ستقولين عنى؟».

قالت فى هدوء غريب :

- «أنت تحرك نوازع تافهة» .

- «وأنت؟؟ تريدن الحفاظ على حياتى كى نتزوج . . بماذا
تصفين نوازعك هذه؟؟» .

ضحكت قائلة :

- «أنت مغرور . . من قال إننى سأتزوجك؟» .

بهت لسماع كلماتها، واستبدت به الحيرة، وغلت الدماء فى
عروقه، أغمض عينيه، شعر أن الأرض تدور به، لشد ما أرهقت
تلك المرأة أعصابه وفكره وجسده، النظر إلى وجهها يقلب كيانه،
ويربك عقله، أعطاهما ظهره، وأسرع خارجاً، وجاءه صوتها :

- «إلى أين؟ . .» .

- «إلى . . إلى . .» .

- «اللبن والتمر . .» .

- «كلية أنت سمأ زعافاً» .

وانطلق . . لكنه سمع من خلفه أنيئاً خافتاً سمر قدميه فى
الأرض بضع لحظات . . ثم استأنف المسير . . وعاد وتوقف، لكن
لم يكن لديه وقت . . هناك الرجال من ثقيف وهوازن ونصر

وجشعم . . إنها ليلة حاسمة . . لولا ذلك لبقى مع عاتكة برغم فتحها وكلماتها الحادة . . إن الأمر جد خطير . .

تنادت هوازن للحرب ، وحشدت حشودها وتوافد رجالات ثقيف وقبائل جشعم ونصر ، ولملت السيوف تحت وهج الشمس ، ونزلت جموعهم بواد يقال له «أرطاس» ولم يغب عن المسلمين نوايا هوازن وجندها ، فخرج الرسول في عشرة آلاف وهم الذين فتحت مكة أبوابها لهم ، مضافاً إليهم ألفان من أهل مكة بينهم أبو سفيان ومعاوية ويزيد وولدها والعباس وغيرهم . .

وقفت عاتكة في مكان مرتفع تشهد الزحف الكبير الذي يغطي مساحة شاسعة من الجبال والأودية ، ورأت نساء كثيرات وأطفالاً وإبلاً وشاء . . وتطلعت إلى الحركة المواردة الدائبة . .

- «أن يا جاريتي الوفية أن نترك هذا المكان» .

- «إلى أين نرحل؟» .

- «نذهب بعيداً إلى الوراق فما بنا حاجة لنلتذ برؤية الدماء . .» .

- «لكن هوازن خرجت بنسائها ورجالها وأطفالها؟» .

- «معركة حياة أو موت» .

ثم التفتت إلى جاريتها قائلة :

- «أليس الموت أهون من هذا العناء؟؟» .

ولما لم تجب الجارية عادت «عاتكة» تقول :

- «يا طول عذاب النساء...» .

قالت الجارية فى خجل :

- «لكن الرجال يحاربون ويموتون... وهذا شئ مرير...» .

وقوضت عاتكة خيامها ، وحمل الخدم والعبيد متاعها ، وساقوا
إبلها ، وركبت هى وأمها العجوز الهودج العالى ، وأزمعوا المسير
إلى الورااء بعيداً عن المعركة . .



وخرج العجوز «دريد بن الصمة» مع الخارجين ، وحينما استقر
به المقام ، جلس يلهث ويستمع لما يجرى باهتمام ، وتمتم :

- «بأى واد أنتم؟» .

قال مالك :

- «نحن فى أروطاس» .

- «نعم مجالاً للخيل!» .

وسرَّ مالك لسماعه ذلك الإطراء ، إن المكان الذى نزل به يعتبر
أروع مكان للمعركة المقبلة ، بشهادة حكيم جشعم «دريد» ، لكن
ابن الصمة لوح بيده إشارة للصمت ، ثم قال :

- «مالى أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء؟».

وكان مالك قد انصرف عنه، فرد أحد الواقفين قائلاً:

- «ساق مالك مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم».

ضرب «دريد» كفاً بكف، وقال فى دهشة:

- «ماذا؟ وأين مالك؟؟».

فأسرعوا باستدعائه، فقدم فى كبرياء و صلف دون أن يتكلم. .
بينما قال العجوز الكليل البصر دريد بن الصمة:

- «يا مالك بن عوف. . إنك قد أصبحت رئيس قومك، وإن
هذا يوم له ما بعده من الأيام، فلم فعلت ذلك؟؟ لم خرجت
بالأطفال والنساء والأموال؟؟».

قال مالك فى ثقة لا حد لها:

- «أردت أن أجعل وراء كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم
ويستमित فى الدفاع. .».

وابتسم دريد بن الصمة فى سخرية، ورفع إليه وجهها مغضناً
عميق الأخاديد، وقال بصوت مرتفع مرتعش:

- «لست محارباً بارعاً يا مالك، أنت راعى ضأن والله، هل يرد

المنهزم شيء؟؟ إنها إن كانت لك ، وصمدت وتقدمت ، فلن ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن دارت الدائرة عليك فضحت في أهلك ومالك . . .» .

اكفهر وجه مالك ، واجتاحته موجة عارمة من الضيق ، وقال :
- «لن أترحزح عن رأيي ، العدو قادم ، ونحن نناقش أموراً حسماًها . . .» .

هز «دريد» رأسه الأشيب في أسى ، وقال :
- «ماذا فعلت قبائل كعب وكلاب؟؟» .

قال أحد الحاضرين :

- «لن يشهد المعركة أحد منهم . . .» .

بدا الضيق والعجب على وجه «دريد» . . . كان يعلم أن كعباً وكلاباً من أمهر المحاربين ، وأحسنهم تمرساً في فنون القتال والخبرة ، ولذا قال :

- «غاب الحد والجد . . . لو كان اليوم يوم علاء ورفعة لما غابوا . . . آه . . . والله لو ددت أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب . . .» .

هاج مالك وماج ، وأبدى احتجاجه الشديد على ذلك التصرف من «دريد» ورماه بالخوف والخرق ، مؤكداً أن مثل هذه

الاعتراضات ليس وراءها سوى توهين العزائم، وإثارة الشكوك والمخاوف، بل تمادى الظن السيئ بمالك بن عوف، واتهم البعض بأنهم حاقدون عليه، يغارون منه ومن المجد الذي سيتحقق على يديه، وكان مالك قد أرسل عيوناً له كي يتسللوا إلى مواقع المسلمين، ويأتوه بالأنباء عن استعداداتهم وحشودهم وخططهم، وفي هذا الوقت عاد هؤلاء الرسل هلعين مرتاعين، قد تفرقت أوصالهم من شدة الخوف، فقال لهم مالك:

«ويلكم ما شأنكم؟؟».

قالوا: «رأينا رجالاً بيضاً، على خيل بلق، والله ما تماسكنا إن أصابنا ما ترى...».

فأشبعهم سخرية مرة، ونقداً لاذعاً، وعاب عليهم ذلك التخاذل المشين، وأكد لهم أن النصر لهوازن.

ولم يجد دريد مناصاً من أن يترك الأمر لمالك يتصرف كيف شاء وأنه لم يقتنع مطلقاً بسوق الأطفال والأموال خلف المحاربين، وأوصى بأن يوضع النساء والأطفال والأموال في أماكن ممتعة، وأماكن نائية عن الميدان، حتى تيسر لهم النجاة إذا دارت الدائرة على هوازن وحلفائها.

فصاح مالك في إصرار:

- «والله لا أفعل، إنك يا «دريد بن الصمة» قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن، أو لأتكنن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري...».

فأذعن الحاضرون لرأيه..

وخرج مالك إلى حيث يتجمع الشباب، ويعدون العدة للمعركة، هو يعلم أن كلماته تصل إلى قلوب هؤلاء الشباب، فينفعلون بها، إنهم مثله يضيقون بحكمة كبار السن ورويتهم وتخوفهم، وينكرون عليهم التردد والتحفظ، وقف مالك بينهم قائلاً:

- «أيها الرجال.. أتدرون معنى انتصارنا؟؟ لئن تبددت قوات محمد، وقضينا على جيشه، فستدين لنا مكة، وستخضع المدينة، وتركع القبائل المتناثرة هنا وهناك مستسلمة، وستضيق بيوتنا ومرايعنا بالغنائم والسبايا التي نحصل عليها.. سنصبح ملوك العرب.. وتستطيع سيوفنا أن تجمع هذه القبائل العربية كلها على قلب رجل واحد.. وستصبح هوازن أغنية على الشفاه، وقصيدة عصماء يترغم بها الشعراء في آفاق الدنيا...».

انقادت حماساتهم، وهتفوا صاخبين:

- «نحن وراءك مالك بن عوف.. نحن جنودك...».

- «واعلموا أيها الرجال أنه إذا حاقت الهزيمة بمحمد في البداية، فلسوف يفر أتباعه . . بل سيسوقونه أسيراً إلينا، عندئذ نعبد من نشاء، ونكفر بمن نشاء . . وتكون لنا جنة من صنع سيوفنا . . ويكون لأعدائنا الجحيم الأبدى . . والموت والدمار . .».

وهذروا مرة أخرى:

- «معك حتى النصر يا مالك بن عوف . .».



أطل المساء، وانطلق مالك صوب الفضاء حيث يخف الزحام والضجيج، أراد أن يفرغ لنفسه بعض الوقت، كي يتدبر أمره، ويفكر فيما يأتي به الغد، هكذا قال لنفسه، لكن الحقيقة التي يحاول إخفاءها حتى مع نفسه، هي أنه كان يريد أن يبلغ مقر عاتكة . . شئ ما يجذبه إليها دائماً . . ترك الجيش . . والرجال . . والحديد . . والشاء والإبل . . والنساء من أجلها ليتزود بنظرة، أو يستمع إلى كلماتها الحادة التي تؤلمه وتشيره، وبرغم ذلك فهو حريص على الالتقاء بها . . هذه الألوف تدين له بالطاعة والولاء، وهو بدوره يخضع لعاتكة . . معنى ذلك أنها برغم وحدتها وضعفها أقوى منهم مجتمعين . .

إنه لا يصدق عينيه . . ها هي النخلات الثلاث وعلى بعد
صغيرة الأكمة الخضراء . . لكن أين حظائر الشاء والإبل؟؟ أين
الحيام . .؟؟ هرول بجهد خطوه وبصره . . ويتشمم الآثار . . تلك
بقايا نيران . . وأوتاد منسية . . ومزاود . . وروث جمال وشياه . .
لكن الصمت يضرب أطنابه . . أضحت . . آه . . صدق الشاعر:

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذى أخنى على لبد

عشش فى رأسه بأس وتشاؤم، شعر أنه قد افتقد مصدراً من
مصادر قوته وعزيمته، بدا إنساناً حزيناً متوتراً عاجزاً . . الكارثة أنه
يحن إلى البكاء . . الوجوم يختلط بالظلام ويلفع الوجود من
حوله . . ما قيمة الحياة . . إنها سمجة مقية . . تبسم لكنها تتسم
بالعناد والسخرية والتحدى . . يا للمأساة!

وسمع نداء يشق الظلام:

- «يا مالك بن عوف . . يا مالك بن عوف . . أين أنت؟؟» .

كان أحد رجال هوازن يبحث عنه:

- «يا مالك . . إن محمداً وجيشه قد رابطوا عند مدخل وادى
«تهامة» . . ويرى دريد أن نسرع قبلهم ونختبئ فى الشعاب
والمنحدرات والكهوف، حتى إذا ما انطلقوا داخل الوادى فاجأناهم
عند الفجر من كل صوب . .» .

هز مالك رأسه قائلاً:

- «إنها فكرة رائعة . . ولن يفلت المسلمون . .» .



الفجر يوشى التلال بتيجان فضيته، والصمت ينشر رداءه على الوجود، وتقدمت قوات المسلمين إلى وادى تهامة، وقال قائلاً:

«لن نغلب اليوم عن قلة»، فقد كان المسلمون فى جيش لم يجتمع بمثل هذا العدد فيه قبل، وصادفت هذه الكلمة هوى فى نفوس المسلمين، وملأت نفوسهم ثقة وإعجاباً، غير أن رجلاً مؤمناً آخر تتم:

- «لا تقولوا هذا القول، ولا تغتروا بكثرتكم، فالنصر من الله وبالله، ولن تغنى الكثرة شيئاً . .» .

وما إن توسط المسلمون الوادى، حتى انقض الأعداء عليهم من كل جانب فى عماية الصبح، لقد سبق العدو، واتخذ المواقع الحصينة، وأحكم مالك بن عوف خطته، وانهالوا على المسلمين بالنبال والحرايب، فأربكوا صفوفهم، وأثاروا الاضطراب فى نظامهم، فاختلط الأمر، وتخطب المسلمون، لكأن الله أراد أن يلقيهم درساً خالداً، ويشعرهم بأن الكثرة وحدها لا تحقق نصراً، أو تحقق غنماً، فانشمر المسلمون راجعين لا يلوون على شىء . . .

وزمجر خالد فى غضب وهو يرى أبطال الفتح يتراجعون :

- «ما الذى جرى؟؟ إنى لا أصدق عبنى . . .» .

ورد أبو سفيان ساخرأ، وكان حديث عهد بالإسلام، متورأ
لنجاح المسلمين فى فتح مكة وإزالة سلطانه، رد أبو سفيان قائلاً :

- «لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . . .» .

وقال منافق آخر :

- «ألا بطل السحر اليوم . . . لقد انكشف المسلمون . . . وهاقت
بهم الهزيمة . . .» .

إنها أوقات رهيبة حاسمة، فيها تبدى دخائل النفوس
وأهواؤها، فالذين آمنوا بالأمس كذباً ونفاقاً، ترسم ابتسامة
التشفى على شفاههم، وتغمر الشماتة قلوبهم، فيبشون أراجيفهم
وسومهم بين الجيش ويحطمون من روحه المعنوية .

ويقهقه «مالك بن عوف» فى طرب ويهتف :

- «أين دريد بن الصمة، ليرى بنفسه كيف تحطم سيوفنا أساطير
الادعاء والزيف؟؟» .

ووقف رسول الله ﷺ يرى القبائل المسلمة تفر فصاح فى إيمان
قوى لا يتزعزع :

- «إلى أيها الناس . . أنا النبي لا كذب . . أنا ابن عبد
المطلب . .» .

وهتف الرسول بعمه العباس قائلاً:

- «أى عباس . . اهتف بأصحاب السمرة (أى بيعة الرضوان)
فنادى العباس:

- «يا أصحاب السمرة . . يا أصحاب سورة البقرة . .» .

فكان الرجل من المسلمين يحاول أن يوقف بعيره ويرده إلى
المعركة، فلا يقدر، فيأخذ سلاحه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله،
ويؤم الصوت، وينحاز إلى الرسول، وأتى أصحاب بيعة الرضوان
من كل صوب ملبين نداء النبي، وهم يهتفون «لبيك . . . لبيك»
حتى اجتمع إلى الرسول مائة منهم . استقبلوا الأعداء وقاتلوهم فى
عنف وصبر، ثم نادى النبي: «يا للأنصار . . يا للأنصار»، وبعدها
نادى: «يا لبني الحارث بن الخزرج» وكانوا أقوياء الشكيمة، صبراً
عند الحرب . . فازداد احتشاد المسلمين حول الرسول، واستقامت
صفوفهم وأخذوا يكرون وقد انجلى الظلام، وملا نور الشمس
الكون، وحمى وطيس المعركة . . ثم أخذ رسول الله حصيات،
فرمى بها وجوه الأعداء، وهو يقول: «انهزموا . .» .

ووجهت هوازن وحلفاؤها بمقاومة عنيدة كالصخرة، كانت موجات الهجوم تتكسر ومالك بن عوف يتراجع برجاله . . لم تكن السيوف وحدها هي التي تعمل، كانت نداءات المسلمين تشق الآفاق:

الله أكبر الله أكبر

لا إله إلا الله وحده..

لمن النصر اليوم؟؟ لله الواحد القهار

ونظر مالك إلى رفاقه وهم يفرون، صرخ فيهم:

- «قفوا أيها الجبناء . . واثبتوا . .».

قال رجل من هوازن وهو يهرب فوق جواده:

- «إنهم لا يهزمون . . انج بنفسك يا مالك بن عوف . .».

- «أتترك نساءك وأطفالك وأموالك . .».

- «نفسى . . نفسى . .».

دارت الأرض بمالك بن عوف، تذكر نصائح «دريد بن الصمة» . . احتاجت في نفسه مرارة قاتلة، وساوره ندم مفرع، لماذا لم يستمع لرأى ذوى التجربة والخبرة؟؟ «لا . . لا . . إتنى على حق . . لم أخطئ . . إن دريد واهن القوى، مضطرب الفكر»،

وجاء صوت رجل مسلم إلى مالك بن عوف . . وتلاقى الرجلان بسيفيهما . . كان مالك يضرب في حقد واستماتة وصمت ، وكان المسلم يهتف به وهو ينازله : «لماذا تسد الطريق أمام كلمات الله يا مالك؟ لماذا لا تترك لقومك حرية الاختيار؟؟ إننا ندعو إلى الأخوة والعدل والحب، تحت لواء وحدانية الله، خالق الإنسان، وبارئ الأرض والسماء . . وأنت إلى أى شيء تدعو الناس يا مالك بن عوف؟ إنك امرؤ مغرور يحركك الوهم، وتدفعك الترهات البالية . . »

كانت هذه الكلمات أشد إيلاماً لنفس مالك من وقع السيوف . . ووجد مالك نفسه وحيداً . . هرب جنوده . . والمسلمون يوشكون أن يطبقوا عليه . . لوى زمام فرسه، واتجه إلى الخلف . . مزعماً الفرار . . آه . . أيترك أهله؟؟ يا للكارثة! أيخلفهم ليصبحوا سبائاً وغنائم . . وهو الذى أمر بسوقهم إلى الميدان كي يبعثوا في قلوب المحاربين الشجاعة، ويثبوا في نفوسهم الثبات والإصرار . . لكن أمن العقل والحصافة أن يظل يحارب حتى يموت؟؟ لماذا لا يفر، وينجو بحياته حتى يجد فرصة أخرى يثار فيها لكرامته وأهله؟؟ عشرات النوازع تتقاذفه وتملؤه بالحيرة والارتباك . .



لكنه فى النهاية يولى هارباً .

وتنتهى المعركة ، ويتصر المسلمون . . وتسقط هوازن . .
الأسرى ستة آلاف . . والإبل التى غنمها المسلمون أربعة وعشرون
ألف رأس ، والغنم أربعون ألف شاة . . والفضة أربعة آلاف
أوقية . .

- هدر الأسرى : « اللعنة على مالك بن عوف ، كشف السر
وأغوى التعساء ، وساق الناس إلى الهاوية . . ثم ولى هارباً تاركاً
وراءه الخيبة والعار ، وسوء الأحداث . . » .

وانعكست شمس الأصيل على قمم الجبال والتلال ، فبدت فى
صفرة الذهب البراق ، وشهد جبل « حنين » طرازاً جديداً من الناس
يركعون . . ويسجدون لله شكراً . .



وكان مالك يسابق الريح بجواده الأصيل ، حتى أصبح فى مأمن
من المسلمين وكان يقصد « الطائف » وقد سبقه إليها عدد كبير من
المنهزمين ، ومعهم رجالات ثقيف الذين نجوا من الموت ، أملين أن
يلتقطوا أنفاسهم ويبدأوا المعركة بعد أن تندمل الجراح ، ويذهب
الروع . . .

وعند منحنى أحد الدروب ، خفف الجواد من سرعته ، ونظر

مالك إلى يمينه فرأى عاتكة تقف أمام خيمتها، وحولها الخدم والجواري . . وتوقف عن المسير . .

آه . . ماذا ستقول عاتكة . . ليت الأرض تنشق وتبتلعه ! لماذا توقف؟؟ أما كان من الأفضل أن ينطلق إلى الطائف، حتى ينجو من كلماتها الجارحة، وعتابها الأليم . . لكن قوة خفية تجذبه إلى خيمتها جذباً، قوة لا يستطيع منها فكاًكاً . . بل إن مالك يشعر أنه في ميسس الحاجة إلى عاتكة أكثر من أى وقت مضى . . إنه يريد صدرًا حنوناً ليناً، يريح عليه رأسه، ويثبته نجواه وأسائه . . إحساس جديد بأنه أصبح كطفل تائه . . حزين . . محروم من الحب والحنان . .

قالت وقد رآته مطرقاً معفراً واجماً :

- «هل أتيت؟؟» .

- «ليتنى ما أتيت .» .

وشعر برغبة فى البكاء، لكنه تمالك نفسه .

قال : «ها بنا إلى داخل الخيمة . .» .

تردد قليلاً ونظر إلى بعيد صوب الميدان المضرج بالدماء . .
عاجلته بقولها :

- «لا تخف . . لن يطارذك أحد . . لن يفكر المسلمون في مواصلة الزحف قبل عدة أيام . .»

شعر بالخجل، لكنها تقرأ أفكاره، وحينما اتكأت على وسادتها، ونظر إلى وجهها في حياء . . العيون القاهرة الواسعة . . ذات الرموش الطويلة . . والوجه الأسمر الفتى الذى يفيض إثارة وجمالاً وأسى . .

- «كنت واثقة أنك ستأتى . .»

- «لم أكن أعرف طريقك . . لقد هجرت المكان فجأة . . بحثت عنك دون جدوى . .»

- «أكان لديك وقت للتفكير فى شيء غير الحرب . .»

- «عائكة . . أنت فى جسدى وروحى وعقلى . .»

- «ما أعجب إيمانك . .»

- «أنت الحقيقة الوحيدة التى أؤمن بها . .»

ابتسمت وتمطت ثم قالت:

- «أتريد الصدق؟؟»

- «أجل يا عائكة . .»

- «أنت لا تحب إلا نفسك . .»

- «أنت تظلميني . . .»

استدارت إليه بوجه مكفهر :

- «وأنا أكره النذالة والنفاق . . .»

حط على قلبه همٌ ثَقِيلٌ ، وقال :

- «هل هذا هو العزاء؟؟»

هدرت في نبرات قاسية :

- «جئت تستجدي عطاء امرأة . . وتركت خلفك آلاف

الضحايا يتعذبون . . مَنْ المسئول؟؟»

خفض رأسه ، والعذاب يطحن مشاعره ، وهمهم :

- «أنا المسئول . . .»

- «النساء الآن يتعذبن ويولولن . . وفيهم امرأتك . . .»

- «أعرف . . .»

- «ثم تأتى وتتكلم عن الحب . . .»

نظر إليها في ضراعة :

- «أريد كأساً من خمر . . رأسى يلتهب . . .»

- «حطمت الأواني يا مالك بن عوف . . ولم يعد لدى سوى

اللبن والتمر . . .»

- «لماذا يا عاتكة؟؟».

- «الخمر خداع .. تصنع وهماً .. تنسج خيوط سعادة زائفة ..
ثم تنقشع السراب .. ويتجلى العناء بوجهه البشع ..»، وصاحت
بصوت ناثر:

- «كن يقظاً يا مالك بن عوف .. تعذب .. ولا تهرب ..
فلتعان من سياط الضمير .. خض جحيم الآلام .. واجه تفاهتك
وغرورك .. ومصيرك الدامي .. الخمر طمس غموك الروحي
والفكري .. تخدعك .. المعاناة الأليمة تخلق منك إنساناً
جديداً ..».

انقذف نحوها، حاول أن يطوقها بذراعيه، بينما دموعه تنهمر
ونحيه يعلو، أسرع ودفعته في لطف، وقالت:

- «لم تعد طفلاً .. كنت بالأمس سيد قومك ..».

- «إن كل شيء فيك يشتعل ..».

- «دع ذلك .. فلست لك ..».

هتف في رعب:

- «لماذا؟؟».

- «أنا أبحث عن إنسان ..».

- «وأنا؟؟؟» .

- «لم تتخطَّ مرحلة الطفولة بعد، على الرغم من لحيتك
وشاربك الكث، وجسدك القوي . . .» .

- «لكنني لا أستطيع الحياة بدونك . . .» .

- «بل تستطيع . . ألم أقل أنك لم تزل طفلاً!» .

قال في بأس :

- «أهناك رجل غيري، أنت معه على موعد؟؟؟» .

قالت :

- «بل رجال كثيرون» .

- «كيف؟؟؟» .

- «لقد قررت أن أعتنق الإسلام . . .» .

- «أنت يا عاتكة؟؟؟» .

- «أجل . . ولهذا فإن حاجزاً ضخماً يقف بيننا، من الصعب
اجتيازه . . .» .

قال في توتر :

- «معنى ذلك أنه يمكن أن تكوني لي إذا . . .» .

قاطعته وهي تفهقه ساخرة :

- «تفكر في الإسلام من أجل . . إنه إيمان حقير . .» .

- «صدقيني يا عاتكة . . أنت اللغز الوحيد الذي استعصى عليّ فهمه . .» .

قالت وهي ترشقه بنظراتها الفاتنة الحزينة :

- «إذا أردت أن تفهم شيئاً، فلتلغِ ذاتك . .» .

- «كيف؟؟» .

لم تكثرث لتساؤله ، واستطردت قائلة :

- «لو فعلت ذلك ، لتبدت حقائق الأشياء واضحة جلية . . ولعرفت الله . .» .

قال في ذهول :

- «الله؟؟ إننى أعرفه من قديم . .» .

- «كنت تؤكد ذلك أنك أنت الذى تصنع آلهتك . . الآلهة لا تصنع . . هناك إله واحد لا مثيل له . .» .

هب واقفاً ، وقد اشتعل غضباً :

- «لن أؤمن بمحمد وربه» .

قالت دون أن يزاولها هدوؤها :

- «إن حصاة واحدة لا توقف تدفق السيل . . .» .

وشردت إلى بعيد، وهى تقول:

- «وقد يدمر السيل بعض الكائنات . . لكنه يروى ظمأ الأرض
المحترقة . . ويشيع فيها الحياة . . فتخضر الروابي . . وتندلى
العناقيد . . وتضحك الزهور . . وتغرد الطيور فوق الأغصان . .
وتتحول الدنيا إلى موسم للأفراح . . أه، ما أشد شوقى إلى هاتيك
الأفراح . .» .

دخلت الجارية فى خوف، وقالت متلعثمة:

- «إن غباراً كثيفاً يسد الأفق . .» .

لم يتوان مالك لحظة، بل اختطف سيفه، وجرى خارج الخيمة
وامتطى جواده، وانطلق من جديد يسابق الرياح . . وقالت عاتكة
فى وجوم:

- «يا للمسكين! لقد انطلق دون تحية أو كلمة وداع . . فى
لحظات الخطر نسى الحب . . نسى كل شيء إلا النجاة بنفسه . . لا
تخافى يا فتاتى، لا بد أن حشداً من المنهزمين أو فلول هوازن
متجهون صوب الطائف . . ونحن سنرحل غداً إلى حيث يكون
محمد . . وهناك نرمى الأحزان خلف ظهورنا . ونولد من
جديد . .» .

على الرغم من اتساع الطريق، وامتداد الصحراء الشاسعة إلا أنه كان ضائق النفس، منهك الروح، يشعر بضيق محزن لم يكن مالك وحده، فقد التقى بعدد من الفلول المنهزمة، وكل واحد يمضى شاحباً مطرّقاً تعباً... بالإضافة إلى الجراح الجسدية التي أصابت الكثيرين منهم... ومالك يفكر في زوجه وأهله... هي الآن إحدى السبايا، فقدت حريتها وكرامتها، إن من يقوم على خدمتها الخدم والحشم، أصبحت الآن مجرد أمة تباع وتشتري... أصبحت ملكاً لغيره من الرجال... زوجة مالك بن عوف النصرى أصبحت إحدى السبايا؟؟ أية كارثة أبشع وأقسى من ذلك؟؟ لا يهم إن كان يحبها أو يكرهها... المهم أنها زوجته... هذه الحقيقة المرة تصفعه بشدة... والرجال الهاربون الملتفون حوله يعلمون ذلك... لقد خسر كل شيء... أما كان من الأرواح له أن يموت حتى لا يتعذب وهو يشهد مصرع كرامته وكبريائه وآماله؟؟ لكن لا... يجب أن يعيش... ويستعد ليوم آخر، فالحرب سجال، ويوم أن يتصر على المسلمين، عندئذ يستطيع أن يثار لأحزان تلك الأيام الرهيبة، ويتقدم في إباء وشم، ويتزع زوجه وأهل بيته انتزاعاً من أيدي الذين سبواهم، ثم يسفك الدماء ويشفي غيظه بأعنف انتقام عرفته العرب... هو في طريقه الآن إلى الطائف، والطائف قد أصاب رجالها من ثقيف قدر كبير من الهزيمة، فهي لا تفتقر إلى

الحقد والإصرار العنيد كى تثار هى الأخرى لشرفها، والطائف قوية
التحصين صامدة القلاع شديدة المراسى . .

وجلست القافلة المرهقة لتستريح بعض الوقت .

ومال أحد الرجال على أذن مالك بن عوف هامساً :

- «لقد مات دريد بن الصمة قتيلًا . .» .

- «الحرب لا تفرق بين الحكيم والمعتوه . .» .

- «كان بعيد النظر . .» .

رمقه مالك بنظرة عاتية، وقال :

- «هراء . . الهزيمة تجعلنا نفكر هذا التفكير، لو انتصرنا لبدا لنا

دريد أحق رأى . .» .

قال الرجل :

- «كان بالإمكان أن نسوى الأمر مع محمد دون إراقة

دماء . .» .

رد مالك :

- «أشرف لنا أن ننهزم، من أن نسلم دون حرب . .» .

- «كلام لا معنى له . .» .

أريد وجه مالك، وصاح :

- «أتعارضنى وتسخر منى؟؟» .

- «لم نخدع أنفسنا؟؟ تلك هى الحقيقة . . .» .

- «ماذا تقصد؟؟ أهو التقرير والتأنيب؟؟ لا تنسَ أننى لم أزل
رئيس القوم وسيدكم جميعاً . . .» .

هز الرجل رأسه قائلاً:

- «أعرف . . لكن النكبة عامة، ولنا الحق فى المشاركة
بالرأى . . .» .

- «لا مجال للرأى . . ولا شىء سوى الحرب . . .» .

- «معنى ذلك أننا لم نتعلم من النكبة الكبرى . . . وأتأنا نخرج من
حفرة لنسقط فى حفرة أخرى . . .» .

رفع إليه مالك وجهاً متحدياً وهتف:

- «ماذا تريد أن تقول؟؟ أفصح . . .» .

وقف الرجل وقال بلهجة واثقة:

- «نذهب إلى محمد، ونبدى الندم، ونعتق دينه، ونطلب منه
الصفح، وإعادة السبايا . . .» .

صرخ مالك فى ثورة:

- «انحطاط . . .» .

- «بل غاية السمو . .» .

فهقه مالك :

- «ندم . . واستسلام . . وضراعة . . وتسميه سمو؟؟» .

قال الرجل :

- «محمد نبى عند الله ، وكلماته أصدق برهان . . إننى حينما أفكر فى دعوته وسلوكه وصموده . . أعجب ويشد بى العجب . . لماذا تحاربه؟؟ وحينما أفكر فى امتداد سلطانه ، وسيطرته على العرب . . أضحك على تصرفاتنا . . إذ كيف نهزم رجلاً هذا شأنه . . كلما قلبت الأمر وجدت أننا نتخبط . . ونفعل كما تفعل النعامة . .» .

قال مالك وهو ممسك بقبضة سيفه ، وصدره يعلو ويهبط :

- «انصرف عنى . . كنت سعيداً بلا نبى . . ويمكننى الآن أن أحيا بلا نبى . .» .

قال الرجل مشيراً إلى من حوله :

- «ونحن؟؟ هؤلاء الناس . .» .

- «لو سمعوا ما تقول . . لبصقوا على وجهك . .» .

احتقن وجه الرجل ، وقال :

- «أغلبهم يفكرون فيما أفكر فيه . . .» .

نادى مالك بأعلى صوته فى الجموع التى قد عسكرت فى المنطقة :

- «لقد أزمعنا مواصلة السير إلى الطائف . . هيا بنا . . ومن أراد أن يتخلف فليذهب إلى الجحيم . . .» .

وتحركت القافلة جميعها صوب الطائف . . كانوا مرهقين منهزمين ، ومضطربى الفكر ، لا يستطيعون أن يحسموا أمراً ، وأشباح النسوة والأطفال والأموال تتراقص فى خيالاتهم المكدودة .



وشدت عاتكة الرحال إلى حيث يوجد الرسول ، ترافقها أمها ومن فى خدمتها من العبيد والجواري . . وركبت فى هودج متواضع ترافقها جاريتها . . كانت عاتكة مفتوحة العينين ، يبدو فيهما التفكير والعزم ، وبقيت صامته فترة طويلة ، وجاريتها مطرقة لا تفتح هى الأخرى فمها بكلمة ، والعبد الذى يأخذ بمقود الجمل يلقي بعض الرجز بصوت جميل منغوم يتناهى إلى أسماعها ندياً رقيقاً . . تنهدت عاتكة ، وقالت :

- «كنت أقول دائماً إن محمداً على حق» .

- «هو ذاك يا مولاتى . .» .

أدركت عاتكة ، أن جاريته لا تتكلم بغير ما تهوى سيدتها ، فبدأ على وجهها شيء من الضيق وغمغمت :

- «أتجاملينى؟؟ أنا لا أحب ذلك . .» .

قالت الجارية :

- «ليس فى كلامه ما يعيب . .» .

- «ولمَ لم تقولى ذلك قبل الآن؟» .

- «كنت أطويه فى قلبى تأدياً . .» .

- «هذا شيء لا يغفره الله . . أعرف أننى امتلكتك . . لكن هناك

شيئاً لا يستطيع أن ينازعك فيه أحد . .» .

- «ما هو يا مولاتى؟؟» .

- «معتقداتك . .» .

- «أجل . .» .

- «والله يحاسبك عليها . . إنها شيء فى القلب . .» .

تجرات الجارية ، وقالت :

- «لماذا لم تسرعى بالذهاب إلى محمد منذ البداية يا

سيدتى؟؟» .

ابتسمت عاتكة :

- «سؤال وجيه . . أتريدين الحق؟؟» .

- «أجل . .» .

- «أنا نفسي أعجب لذلك . . كنت أعتقد أنه رسول من عند الله ، وأن ما جاء به من عند الله ، لكنني كنت متقاعسة ، هذا شيء غريب . . النكبات والأحزان علمتني ألا أخاف أو أنافق . . إنني ألقى بكلماتي دون أن أهاب أحداً . . كيف تقاعست وترددت؟؟ ربما لأن الخروج على المؤلف أمر يحتاج إلى وقت ، وإلى قدر خارق من الشجاعة . .» .

أخذت عاتكة تعبر عما يجيش في صدرها من مشاعر تفيض بالإيمان والنور . . وتجرات جاريتهما ، وقالت وقد أشرق وجهها بالسعادة :

- «وكيف هي جنة رب محمد يا مولاتي؟؟ . . وهل سأكون جارية لك هناك؟؟» .

ضحكت عاتكة ، وقالت :

- «الجنة ليس فيها سادة وعبيد . . الجميع سادة . . لا شك أنجزاء يتفاوت كما تتفاوت منازلنا في التقوى والصلاح . . لكن الكل سادة . . أنت مثلاً لو نلت ثواب الجنة قد تكونين أفضل مني

عند الله، وهناك يا فتاتى لا قيمة للأحساب والأنساب، ولا أثر للغنى الفاحش، أو السلطة الدنيوية.. ومحمد يقول: «من أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه.. انظرى.. أى عالم رائع يكون؟؟ الكل سادة.. وقد يكون لبعض العبيد منزلة أرفع من منزلة بعض السادة..».

شردت الجارية قائلة:

- «إنه حلم جميل..».

- «بل إنه فى قلب المؤمن حقيقة..».

أفاقت الجارية إلى نفسها، وقالت فى تأدب:

- «لكم يسعدنى أن أكون إلى جوارك فى الجنة.. إن وجودى بالقرب منك أمر سيسعدنى كثيراً.. ويخيل إلى أننى سأشعر بأسف بالغ إذا ما ابتعدت عنك فى الجنة..».

قالت الجارية تلك الكلمات، وعاتكة ترمقها فى احترام وود، وقالت:

- «هناك يا فتاتى لا وجود للحرمان أو الأسف.. هناك السعادة الأبدية.. والحب.. وتحقيق كل الآمال.. إنك قادرة على أن تحققى كل ما يخطر لك على بال.. وفى الجنة يا فتاتى تنعدم الأحقاد.. لن تقع عينك على وجه كالح متوتر.. أو عيون

دامعة . . أو ابتسامات ذليلة . . ولن تلوثها الدماء والأحزان
والخوف . . .»

أشرق وجه الجارية بالسعادة، ورفعت عينيها المخضلتين وهي
تهتف:

- «وافرحته . . .»

- «وفى الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على
قلب بشر . . .»

قالت الجارية في حماسة بالغة:

- «كلماتك هذه تجعل الدنيا في عيني تافهة . . الأيام تمر عليه
مملة . . لكم أتشوق للقاء الله».

- «لكن الدنيا يا فتاتي . . هي التجربة . . هي الامتحان . . إن
أماننا وما فيها من أعمال هي التي تأخذ بأيدينا إلى النعيم المقيم،
لقد أوجدنا الله في هذه الدنيا . . هكذا أراد . . فلم نتبرم بها؟؟
والمؤمن هو من يحيا حياته لله . . عندئذ . . تصبح الدنيا جسراً إلى
الخلود والنعيم . . ذلك هو العدل . . .»

وران عليهما الصمت من جديد، الجارية تحلم بالجنة الموعودة،
حيث يكون جميع الناس سادة، لا عبيد ولا مظلوم ولا حرمان،

وعاتكة تحلم بقاء الرسول، وبحياة جديدة، يسودها الصفاء والدعة والسلام..



ودهشت عاتكة إذ سمعت الجارية تقول:

- «ولماذا لا يؤمن مالك بن عوف؟؟ ألا يخاف عذاب الله؟؟».

- «إنه يعاني أشد العذاب منذ الآن..».

وتعلمت عاتكة في مكانها، واستطردت:

- «إنه مسكين»..

قالت الجارية خافضة الرأس:

- «لماذا لم تزوجه يا مولاتي.. وهو سيد قومه.. ألا

تحبينه؟؟».

- «إنني أحبه..».

قالت الجارية في دهشة:

- «عجيب..!».

- «أجل.. لكنه حب بعمر الزهور.. أعرف أن مداه لن

يطول.. الناس تقول إن مالك قد تزوج من امرأة بعد قصة حب

عنيفة ومثيرة.. آه.. مالك سيد قومه.. ومالك ملول.. ولا حد

لرغباته وشهواته . . والحب يا فتاتي في البداية دماء تغلى وتغور . .
ثم بضعة كنوس . . وليالى بهيجة . . وتهدا العواطف . . ويتحول
الحب الملتهب إلى هدوء ومودة . . ومالك عدو الهدوء والملل . . إنه
يعبد التوتر والتوهج والاشتعال . . وسوف تمر أيام أو شهور . .
وبعدها سيلهث فى طلب الجديد . . ستبحث الفراشة عن شعلة
أخرى تحوم حولها وإن احترقت بلهبها . . وأنا امرأة مجربة . .
عانيت الكثير . . أبحث عن إنسان سوى . . ناضج . . يفهمنى
وأفهمه . . عندئذ يستطيع أن يحتفظ كل منا بالآخر . .»

كانت الجارية تستمع إليها بقلب متلاحق الضربات، كلمات
سيدتها تنصب فى أذنيها، وتتسلل إلى فكرها فتجده وتثيره،
وتتمت الجارية:

- «لكنك قادرة على ترويضه وامتلاكه . .؟»

هزت عاتكة كتفيها قائلة:

- «لا أحب أن يكون لى عبدا . . عندما تبالغ المرأة فى الاحتفاظ
بزوجها، يكون ذلك مدعاة لمزيد من نفوره وضيقه».

وتنهدت قائلة:

- «ومع ذلك، من يدري؟؟ فلترك هذا الأمر الآن . .»

وتوقف الجمل عن المسير . . وصاح القائد:

- «هنا ينزل محمد . . .» .

أطلت من ثغر الهودج، كان الضوء يغمر المكان بهاء وروعة، وآلاف الرجال يروحون ويجيئون في أمن وثقة ورضى . . وسرت في جسدها رعشة قدسية، فأغمضت عينها، وشرقت . . وتمتمت والأشواق تغمر قلبها:

- «هذا يوم المنى . . هذا يوم اللقاء . .» .



وكانت المفاجأة أن «عاتكة» سمعت بقدوم وفد من «هوازن» يتألف من أربعة عشر رجلاً، جاءوا نيابة عن قومهم يقدمون أسفهم، ويعرضون إسلامهم، ويطلبون من الرسول أن يرد عليهم السبي والأموال، تكرمًا منه وعطفًا، وكان الرسول يعلم أن الغنائم من حق المحاربين، بهذا جرى العرف، وكذلك كان يفعل أعداء المسلمين، حين يستولون على السبايا والأموال، فنظر الرسول إلى وفد «هوازن» وإلى جموع المسلمين، وقال لرجال هوازن:

- «إن معي من ترون، وإن أحب الحديث إلى أصدقه، فأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم، أم أموالكم . .» .

فقال ممثلو هوازن:

- «ما كنا نعدل بالأحساب شيئًا» .

إن عليهم أن يختاروا بين أبنائهم وأموالهم، ورأى وفد هوازن أن التضحية بالمال أمر هين، أما التضحية بالنساء والأبناء، فأمر عسير قاس على النفس .

وفكر الرسول برهة ثم قال :

- «إذا صليت الغداة، فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله على المؤمنين، وبالمؤمنين على رسول الله أن يرد إلينا سيينا . . .» .
فانصرفوا حتى تحين الصلاة . .

وقالت الجارية :

- «مولاتى . . إن مالك بن عوف ليس مع وفد هوازن» .

- «هو عنيد مكابر . .» .

- «وأين ذهب، وقد انفض عنه الناس؟» .

- «لم يزل بالطائف ينتظر احتشاد ثقيف ليثار لثراهته» .

فلما صلى رسول الله الغداة، وصلى معه وفد هوازن، قاموا وفعلوا مثلما أمرهم الرسول، فابتسم الرسول، وقال :

- «أما ما كان لى، ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس» .

فقال المهاجرون :

- «ما كان لنا فهو لرسول الله» . .

لكن بنى «تميم» وبنى «فزارة»، قد رفض زعمائهم رد نصيبهم من السبايا، إن الأمر اختيار بحث، ومن ثم رأوا أن يتمسكوا بحقوقهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن المعركة قد كلفتهم عددًا من القتلى مما أثار الألم في نفوسهم.

لكن رسول الله تقدم إليهم قائلاً:

- «إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين، وقد استأنيت بسبيهم، وقد خيرتهم، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً، فمن كان عنده شيء فطابت نفسه بأن يرده، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يتمسك بحقه فليرده عليهم، وله بكل فريضة ست فرائض من أول ما يفى الله علينا».

وأنارت القضية جدلاً صاخباً بين المسلمين، وكان الرأي السائد بينهم، أن الرسول لم يأمر بالرد، ومن ثم فالأمر مستروك لاختيارهم، ومع ذلك فقد نظروا إلى إسلام هوازن نظرة متعمقة، إن هؤلاء إذ أسلموا، إنما يحز في نفوسهم أن يبقى أبناؤهم ونساؤهم سبايا، وإن الأخوة التي تجمع بين المسلم والمسلم إنما تكون مبرأة من الأحقاد، ونوازع الحقد والطمع، وهكذا استجاب المسلمون المعارضون لرأى رسول الله، وردوا السبايا إلى هوازن، فكان يوم فرح وسرور واستبشار..

وفى المساء قالت الجارية لمولاتها عاتكة :

- «لقد سأل الرسول عن مالك بن عوف ، وأبدى دهشته لعدم مجيئه مع الوفد . . ووعده خيراً إن هو قدم إليه . .» .

تنهدت عاتكة فى ارتياح :

- «لا أظن أن الرسول قلق لذلك ، فهو عليه الصلاة والسلام على يقين من نجاح دعوته ، ولا شك أن الأسلوب الفذ الذى عامل به وفد هوازن ، سوف يجعل الناس يأتون إليه تباعاً حتى يعم الإسلام بلاد العرب كلها . . كنت أرى ما يجرى وأنا فى قمة السعادة . . رأيتهم يحنو على الأعداء ، ويؤاخى بين الأصدقاء ، لا يخرج به الغضب ، ولا يعنف على معترض ، ابتسامته تنبع من قلبه ، رفقه بهوازن أقوى من رفقه بذويه ، كبير . . كبير . . تتضاءل إلى جواره كل عمالقة الزيف والعناد . . » .

واستلقت «عاتكة» على فراشها ، وقد حط المساء على الآكام وأعتم الأفق ، إلا من نجوم تتلألأ كالابتسامات النابضة فى قلب الأفق ، وأخذت تستعيد كل ما مر بها من أحداث فى ذلك اليوم ، وخاصة تلك اللحظات الخالدة التى لا تنسى ، حينما ذهبت إلى رسول الله ، لتردد الشهادتين ، وتعلن إيمانها بدعوته . . كان جسدها يرتجف من شدة الانفعال ، وكانت تتصبب عرقاً ، ولا تريد أن تحول عينيها عن وجهه الكريم ، لشدة ما تمنى أن تبقى إلى

جواره، نستسمع إلى أحاديثه العامرة باليقين والإيمان والقوة،
ولتشبع النظر والتطلع إلى وجهه الكريم . . وكانت تمضى وهى
ذاهبة إليه، أو خارجة من لدنه، بين جموع المسلمين . . وترقب
باهتمام كيف يتصرفون، وكيف يتفاهمون، احتشاد منظم عجيب،
تنبثق فى جنباته أروع ما يحلم به الإنسان من فضائل وعظمة
واحترام . . حتى وهم يأكلون . . ويصلون . . ويمرحون . .
وتتمت والنوم يغالبها :

- «أى فتاتى . . حينما كنت أنظر إلى عيونهم . . كان يخيل إلى
أنها يبايع تدفق بالحياة والأمل . . فتخضر الصحراء، وتينع
الزهور، وتصبح الدنيا . . جنة خضراء . . عذراء . . نابضة
بالخلود . . ولن أترك هؤلاء القوم . . سأرحل وراءهم أينما
رحلوا . . وسأستنشق تراب معاركهم كما أستنشق المسك
والبخور، وعندما أتزوج من يميل إليه قلبى منهم . . فسيكون ذلك
يوماً سعيداً . . لا يفوقه فى روعته غير يوم اللقاء مع الحبيب
الأكبر . . محمد . . وراحت عاتكة فى سبات عميق . . موشحاً
بالرؤى الجميلة . . والأحلام الوردية .



هل سأل عنى محمد فعلاً؟؟ وهل وعد بأن يرد لى أهلى وعدداً
من الإبل والمال؟؟

كان مالك بن عوف يردد ذلك فى شىء من الاعتزاز والفخر
والزهو، ثم ضحك ضحكة مصطنعة لا روح فيها، ولوى شفته فى
ازدراء، وهز رأسه، ثم قال:

- «يريد محمد أن يغربنى... ها... ها... لن يكون
ذلك، ليس بينى وبينه سوى السيف يحكم بيننا، فإذا كنت جديراً
بأهلى ومالى استوليت على حقى عنوة، وإن فشلت فإن الموت فى
ميدان المعركة أروع عزاء...».

وعجبت الطائف لموقف مالك وصلابته وإصراره، وسددوا إلى
رئيس هوازن نظرات تقدير واحترام، لكن مالك عاد إلى مقره شارداً
الفكر، متوتر الأعصاب، لم يكن كل ما قاله يعبر عما أثارته الأنباء
الجديدة فى عقله من خواطر، لقد شعر بارتياح بالغ عندما علم أن
محمدًا سأل عنه، وأبدى اهتماماً كبيراً نحوه، وأكبر موقف محمد
من السبايا الذين ردهم إلى هوازن، إن مالك على الرغم مما حاق به
من هزيمة، يجد لدى محمد اهتماماً بالغاً، ومحمد حريص على
أن ينضوى مالك تحت لواء الحق، ذلك شىء أشيع غروره، وأرضى
كبرياءه، ونظر مالك حواليه، إن الطائف حصينة، وبها عدد من
الرجال الأشداء، لكنه يدرك - وهو لن يخدع نفسه ثانية - إن أغلب
الناس من ثقيف، يستعدون للحرب فى غير حماسة تذكر،
الكثيرون منهم يرون أن محمدًا على حق، دون أن يجروا على

التصريح بما فى قلوبهم، ولن تكون الطائف أقوى وأمنع من خيبر
 التى اجتاحتها محمد، ولن تكون أصمد من مكة وصناديد قريش،
 الحقيقة التى لا مرأى فيها أن محمداً لن يحقق به الهزيمة بعد ذلك،
 وإن دينه بالنسبة لأديان العرب قمة تعلو كل القمم، فيه وضوح
 واتفاق مع منطق العقل، وقبول لدى عامة الناس، ومحمد ومن
 معه هم التجربة المعبرة عن نجاح هذه الدعوة.. لكن أذهب إلى
 محمد، وأجلس بين يديه تابعاً مستسلماً، وأردد الشهادتين فى
 خضوع، وأنا سيد هوازن وفارسها وصاحب الكلمة المطاعة فى
 قطاع كبير من أرض العرب؟؟ إنه لشيء شاق على النفس.. آه..
 لكن أشق منه أن تكون زوجتى وأهل بيتى سبايا يقاسون العار
 والذل والضياع.. الله واحد.. آه.. هذا حق.. لكن الناس
 سواسية متساوون، هذا شيء فظيع.. هذه المساواة شيء تمجه
 النفس وترفضه، والقانون يطبق على الغنى والفقير، والسيد
 والعبد.. إتنى لا أستطيع أن أتقبل ذلك، إن للسادة دائماً حقوقاً
 غير حقوق العامة، ومعاملة غير معاملتهم.. إنهم سادة.. هنا
 نقطة الضعف فى شريعة محمد.. لا أدري كيف وافق على ذلك
 كبار القوم فى مكة والمدينة وغيرهما من الأماكن، أهو الرضوخ
 للقوة وعزة المتصرف؟؟ لا.. لقد انصاع الأوس والخزرج دون
 ضغط.. اختاروا بأنفسهم.. وانحنوا لإرادة الله.. لكلمات
 محمد.. وقالوا له: لو خضت البحر لحضناه معك.. وساروا

وراءه يتفانون في الدفاع عن عقيدتهم .. كانوا يموتون سعداء ..
آه .. يجب أن أضع حداً لهذا العذاب كله ..

وصفق بيديه ، فقدم أحد العبيد :

- «استمع إليَّ جيداً ..» .

- «أمر مولاي ..» .

- فلنستعد للرحيل ..

- «إلى أين يا مولاي؟؟»

- «لا شأن لك بذلك .. إنني أمر وعليك التنفيذ ..» .

- «سمعاً وطاعة يا سيدي ..» .

ثم قال مالك بن عوف ملوحاً بسبابته ومحذراً :

- «لكن .. حذار أن يشعر بنا أحد .. يجب ألا تعلم الطائف

أمر هذا الرحيل .. سننطلق قبيل الفجر .. تحت جناح الظلام ..

سننطلق مسرعين .. دون أن يعلم من أمرنا شيء .. أتفهم؟؟» .

قال العبد :

- «أتتوي الذهاب إلى عاتكة؟؟» .

صرخ مالك في حدة :

- «أيها الفضولي العاق . . لا دخل لك في شيء . .
انصرف . .» .

هذا الملعون قد ذكره بعاتكة ، إنه يحاول أن ينساها ، إن عاتكة قد
مرغت قلبه في الذل والعذاب ، وعاتكة سخرت من آرائه ،
وتجاهلت حبه ، وعاتكة شهدته وهو يفر مذعوراً ، حينما قالت
الجارية : إنها رأت غباراً يسد الأفق ، لقد استطاعت عاتكة أن تسخر
منه وتحطم كبريائه وهو في عنفوان مجده وسطوته ، فكيف تخشع
له الآن ، بعد أن انهارت قوته ، وذبل مجده ، وانفض الأتباع من
حوله . . أيعطيها الفرصة لتظهر الشماتة والسخرية المردة من
جديد . لعنة الله عليك أيها العبد الفضولي . . إنك تنكأ جراحاً لم
تندمل بعد في قلبى الحزين . . ومع ذلك فإن مالك يتذكر في تلك
اللحظات عينيها الواسعتين ذات الرموش الطويلة ، وسمرتها الفاتنة
المشربة بالحمرة . . وقسوتها في التعبير وكلماتها التي تنغرس في
قلبه كالمدى الحادة . . وتغردها على حبه وكبريائه . . يذكر كل ذلك
فيخفق قلبه . . آه تلك القلعة المنيعه التي لم يستطع اقتحامها . . إن
هزيمته أمامها لا تقل قسوة عن هزيمته أمام محمد . . علمته عاتكة
كيف يكون الحرمان . . وهو يملك آلاف الرجال . . وآلاف
السيوف . . وعلمته كيف يتحمل الظماً القاتل والكأس بين يديه . .
كانت الوحيدة التي تتحدى قوته ، وتسفه آراءه ، ولا تستسلم لأمره
أبداً . . .

كان قادراً على سحقها لكنه لم يستطع . . وكان فى إمكانه أن يسوقها أسيرة، ويشوى جسدها بالسياط، ويسلكها فى زمرة الجوارى أو الإماء دون أن يعارضه أحد . . لكنه كان عاجزاً عاجزاً من نوع غريب . . وهو يعلم أن كل شيء يمكن الاستيلاء عليه بالقوة إلا الحب . . الحب لا يؤخذ قهراً . . بل يعطى عن طيب خاطر . . إنه حر متمرد . . لو انتزع الحب عنوة لما كان حباً . . لن يشعر بذلك المذاق الشهى، ولا تلك الأشواق الروحية التى تعمّر قلبه بالأفراح . .



- «حان الرحيل . .» -

قالها العبد فى جمود، فخفق قلب مالك، وظل صامتاً برهة، ثم انتزع نفسه من تردده وأفكاره، وقال بصوت عالٍ:
- «هيا . .» -

وانطلق مستتراً بالظلمة، يلهب جواده بالسوط، ومعه فئة قليلة من العبيد، ولم تعلم الطائف بالخبر إلا بعد أن قطع مالك مسافة كبيرة، وأصبح قريباً من منزل محمد . . ومر مالك فى طريقه بالمكان الأخير الذى أوت إليه عاتكة . . لم يجد إلا رماد المواعد، وقدوراً مهشمة، وأوتاداً تالفة . . وبقايا حيوانات . . أغمض عينيه ومضى فى طريقه حتى بلغ محمداً.

كان يظن أن لحظات اللقاء ستكون من أصعب اللحظات في حياته فستمرقه مئات العيون . . سيد هوازن يأتي مبايعاً مسلماً . . لكن مالك يعجب لنفسه ، إذ ينزل بقلبه هدوء واطمئنان من نوع غريب لم يألّفه طول حياته . . إنه يمضى مرفوع الرأس ، باسم الشجر ، يدخل على محمد ، وكأنه كان يحن لذلك اللقاء منذ أمد بعيد . . أهو السحر؟؟؟ «يا إلهي . . إننى أشعر بألفة غريبة لهؤلاء الناس ، وتخفق فى روحى سعادة كبرى ، كيف حدث ذلك؟؟» .

وخرج مالك من عند الرسول مؤمناً . .

والتقى بأهله . . إنه يرى زوجه هذه المرة بشعور جديد . . يشعر بالشوق الجارف نحوها . . إنها تبسم فى سعادة تنطق بها حركاتها ونظراتها وتعبيرات وجهها ، وهو يلتقى بها بنفس الأحاسيس التى كانت تروى عواطفه حينما عرفها لأول مرة ، وهام بها حباً . . كل شىء يتغير . . ويولد من جديد . .

وفى الطريق إلى الربع القديم . . خلف جبل حنين . . كان مالك يرافق زوجه ، تحس رأسها فى حب بالغ ، وهمست هى فى حياته :

- «لقد أسلمت عاتكة . . و . . وتزوجت . .» .

قال وقد خفق قلبه :

- «كيف عرفت؟» .

- «لقد وفدت لزيارتى . . كانت أختاً صالحة بكل معنى الكلمة . . تتمم فى صدق، وقد احمر وجهه خجلاً:

- «أى حبيبتى . . أنت نعمة كبرى من نعم الله على . . ولا يترجع على عرش قلبى سواك . .» .

تخضلت عيناها بدموع الفرح، وتتمت وهى تحتضن ذراعه فى حب:

- «كانت رحلة شاقة . . لكننا عدنا منها بانتصارات عظيمة . . لم تنهزم يا مالك . . ولكنك انتصرت . . إنه يوم عظيم . .» .

وسمعا قائد الناقة وهو يغنى بصوت شجى ألياناً للشاعر المعروف كعب بن زهير:

إن الرسول لنور يستضاء به

وصارم من سيفوف الله مسلول

فى فتية من قريش قال قائلهم

ببطن مكة - لما أسلموا - زولوا

شم العرائين، أبطال، لبوسهم

من نسج داود فى الهيجا سراويل

ليسوا مفاريج إن نالت رماحهم

قومًا، وليسوا مجازيعة إذا نيلوا

وهمست قائلة لمالك :

- «ألم أقل لك . . إنه يوم عظيم؟؟» .

تتم في سعادة :

- «أجل» . .

. . ومال عليها، والدموع عالقة في أهدابه، وهمس :

- «أعتقدين أن أيامنا السعيدة القديمة ستعود؟ . .» .



أحزان ملك

لم يعد للحياة معنى فى نظره، كل شىء حوله يوحى بالملل، ويبحث فى نفسه الضيق، ذلك هو «جبله بن الأيهم ملك غسان» الذى يعرفه العرب فى شتى أنحاء الجزيرة، وينظرون إليه فى تجلة ووقار، ويتسابق إلى بابه الشعراء، لكنه اليوم غيره بالأمس فالدنيا لا تثبت على حال، والمتغيرات الضخمة - بعد مجيء الإسلام - عصفت بالجزيرة شرقها وغربها، وشمالها وجنوبها، وولدت قيم جديدة، وظهرت بطولات من نوع لم يألّفه، وإلا فكيف تحدث الركبان عن «عبد» يقال له بلال، وعن شبان حديثى السن، يقودون الجيوش، ويغيرون وجه العالم . . ثم . . أين ملكه الكبير فى الشام؟

لقد انتهى كل شىء، وعمر بن الخطاب خليفة المسلمين يقتحم ممالك كسرى وقيصر، ولا تستطيع قوة أن تصمد أمامه . . إن «جبله بن الأيهم» يعترف بينه وبين نفسه بأن صورة البطولة الإسلامية فى

الجزيرة العربية تلهب خياله ، وتنال إعجابه وتستحوذ على فكره . .
وإن حياته هنا فى كنف الروم حياة ذليلة . . ميتة برغم ما ينعم فيه
من مال وخدم ونفوذ . . أصبح جبلة يؤمن بأنه يكاد يخلق فى البيئة
الرومية المرفهة الباردة . . ليس فيها ما يشعل أشواقه ، ويؤجج
طموحه ، ودخلت امرأته عليه ، وقد مضى الليل إلا أقله :

- «أراك تعاني من آلام مكظومة» . . ؟

تنهد فى حسرة ، وقال :

- «لقد سئمت هذا الجو» .

- «أرى أنه لا ينقصك شيء يا جبلة بن الأيهم . .» .

قهقه فى سخرية ، وأردف :

- «هناك أشواق لروحي لا تعرفونها» .

- «ما هى» . . ؟

التفت إليها ، وقال وقد بدا الاهتمام على ملامحه :

- «ألا تعتقدين أن الإسلام حق» ؟

- «أوه يا جبلة . . أليس لهذا التفكير المؤرق من نهاية» ؟

- «إنه لا ينتهى ما دام فى عرق ينبض . .» .

- «أنت تعذب نفسك . .» .

- «كيف...؟»

- «تستطيع أن تختار ما تؤمن به... أنت حر...».

صرخ في حدة قائلاً:

- «آه... هنا مربط الفرس... أن أختار... تلك هي القضية المضنية، وأنا حر نعم لكن هناك قيوداً خفية تشل حركتي... قيوداً لا يراها أحد غيري... لقد اعتنقت النصرانية... لكنها لم تملأ قلبي...» ثم أمسك بذراع زوجته، وهزها في عنف، وقال:

- «ويا للعار إذا خليت عن ديني القديم!... ماذا سيقول الناس عني... أعرف ما سيقولون... نعم... «جبلة» كان على خطأ... جبلة يلعب بالعقائد كما يلعب بالجوارى الحسان... أو جبلة يعود ذليلاً مستسلماً لسطوة عمر...».

همست زوجته في ضيق:

- «افعل ما يحلو لك...».

- «كل شيء مر المذاق في حلقى...».

ولم تسفر المناقشة عن شيء حاسم، جبلة يريد أن يهرب من واقعه الأليم، يتمنى أن يكف عقله عن التفكير، ويسحب ستاراً من النسيان على كل ما ينغص عليه حياته المرفهة، فدعا المغنيات والعازفات، والراقصات إلى ليلة حمراء، يريد أن يشرب ويمرح

ويغرق همومه في الطرب والكنوس ، وفي المساء الخافل احتشدت طائفة الطرب والندماء ، وهتف في فرح مصطنع :

- «يا جارية . . غنى لى . . ترغى بقصائد حسان بن ثابت التى كان يمدحنى بها قبل أن يعتنق الإسلام . . » .

النغم الشجى يلعب بالقلوب ، ويشير الذكريات الحلوة ، ولحن الفيثار يختلط بالصوت الحنون ، والنشوة التى تبعثها الخمر ، فيترنح الجالسون ، وتهتز الرءوس إعجاباً وتنطق صيحات الانبهار . .

وصرخ «جبل بن الأيهم» صرخة اهتزت لها جنبات القاعة الكبرى ، المفروشة بالبسط الأعجمية والتى تتدلى فيها القناديل المذهبة ، وقال :

- «اذهبوا عنى جميعاً . . لا أريد أن أرى أحداً أمامى» .

وسيطر الصمت والشجن ، ومالت زوجه وقالت فى توجس :

- «ماذا جرى لك؟؟» .

قال والدموع تكاد تفر من عينيه :

- «ليس هذا هو الدواء الشافى . . » .

- «ما هو الدواء إذا؟؟» .

- «سأذهب إلى عمر فى المدينة . . » .

- «يا إلهي! كيف؟ لقد تصديت للإسلام وحاربت في عنف...
ألا تعتقد أنهم قد يقتلونك؟».

تنهد في ارتياح، وقال:

- «إنهم لا يردون ولا يغدرون بمسلم...».

- «أتعتقد الإسلام يا جبلة؟؟».

- «إن كبريائي تشور يا زوجتي... ولكن لا بد من مواجهة
الحقيقة... إن الهروب من مواجهتها سيقتلني... أنا أعاني من
أحزان مروعة...».



ودخل الملك الغساني مدينة النبي عليه الصلاة والسلام في ركب
جليل مهيب، وعلى رأسه التاج يتلألأ فيه الدر والياقوت، ومن
حوله خمسمائة فارس من فرسانه يرتدون أفخر الثياب التي تخطف
الأبصار لما يتحلون به من ذهب وفضة، وخرجت المدينة عن بكرة
أيها أطفالاً ونساء، ورجالاً يشهدون الموكب الفريد، وينعمون
النظر بمشهد الملك العظيم وفرسانه الذين يرتدون الخنز والديباج،
وكان جبلة حريصاً أشد الحرص على هيئته وكبريائه، ليؤكد
للجميع أنه ما جاء كرهاً ولا دخل مهزوماً، وإنما أتى ليعتق الإسلام
بمحض إرادته.

وبعد أن أسلم دعاه عمر بن الخطاب لأداء فريضة الحج ، وبينما كان يطوف بالبيت العتيق وطأ أعرابي إزاره فحله ، ولم يملك جبلة من شدة الغضب إلا أن لطم الأعرابي لطمة هشت أنفه . . ومضى فى طريقه كأن لم يحدث شئ . . فذهب الأعرابي ورفع ظلامه إلى عمر بن الخطاب فدعا إليه جبلة على الفور :

- «أى جبلة بن الأيهم . . كلنا أمام الشريعة سواء . . لا فرق بين ملك وسوقة . . أى جبلة إما أن تسترضى الأعرابي فيعفو عنك . . وإما أن تدعه يلطمك كما لطمته . . » .

ويحركة لا شعورية وضع جبلة يده على وجهه ، وهتف :

- «أبلطمنى ؟ مستحيل !» .

- «ذلك هو العدل . . » .

- «وماذا يقول الناس عنى . . أأعرابى يلطم جبلة؟؟» .

- «ومن تكون يا جبلة؟؟» .

- «ملك الشام يا عمر . . » .

- «لكنك عبد من عبيد الله . . ولا تستطيع أن تتميز عن أحد من المسلمين إلا بالطاعة . . » .

- «معنى ذلك أنكم تلجئوننى إلى الارتداد عن الدين . . » .

- «المهم أن يمضى أمر الله . . وأمامك فسحة من الوقت إما أن تسترضيه وإما أن يقتص منك، وذهب جبلة إلى رجاله مكروباً ومهموماً، يكاد يجن جنوناً، كان يجلد الرجال بالسياط، ويسوقهم إلى السجن، ويشير بإصبعه فتقطع رقبة المناوى، ويصدر أمره . . فتتحرك الجيوش ويمضى إلى ملك الروم فتنحنى له الهامات احتراماً وتوقيراً . . واليوم يأتى أعرابى حقيير ليلطمه؟ . . يا للعار الذى لا ينمحي أبد الدهر!

وقال رجل من خاصته :

- كيف يجرؤ عمر على قولها؟

هز جبلة رأسه ورد قائلاً :

- «لقد عرفتم . . هنا المبادئ فوق الرجال . .» .

- «وما قيمة المبادئ بدون الرجال العظماء . .؟» .

- «المبادئ هى التى تمنح الرجال صفة العظمة . . والآن فهمت لماذا سار خلف محمد مئات الألوف من البشر . . جيش عرمرم من السادة . . لا فرق فيه بين عمر وبلال» .

قال الرجل :

- «أفهم من ذلك أنك وافقت على القصاص إذا امتنع الأعرابى عن التجمل بالعفو عنك؟؟» .

احتقن وجه جبلة وقال بصوت أجش يرعشه الانفعال :

- «مستحيل . . !»

وابتلع ريقه واستطرد في حسرة :

- «ليس هذا العصر عصري ، وليس هذا المكان مكاني .»

وجبلة بن الأيهم الغساني ، لا يحلوه المقام بين قوم يساوون
بين العبيد والسادة والسوقة والملوك . . إننى أفضل البقاء فى سجن
الروم ، على أن يقال : لطم أعرابى فقير جبلة بن الأيهم . . الموت
ولا هذا . .

وأفاق جبلة من هواجسه وهمومه ، وهب واقفاً ممسكاً بسيفه . .
والتاج يتلألأ فوق جبينه ، وقال :

- «أعدوا العدة للرحيل . . سوف أتسلل تحت جناح الظلام قبل
أن يفضحنا الصبح . . وسيبقى عدد منكم هنا للتمويه ، ولكى
يلحقوا بنا بعد برهة وجيزة . . وسنتخذ الطريق نفسه الذى جئنا
منه ، وتخففوا من أحمالكم التى لا قيمة لها . . وإذا حدث ولحقوا
بنا فلا تسلموا أنفسكم إلا جثثاً هامدة . . الموت ولا العار . . !» .

وأخذ يجفف عرقه ، ويقول :

- «فى الشمال سوف تحلونا برودة الجو ، ونعود للأرض
الخضراء ولحياة الكبرياء والنعيم والطرب . . هناك سيعرف الحكام

من هو جبلة بن الأيهم . . وشرعنا هناك يعرف للملوك قدرهم ،
لقد عشت طوال حياتي فوق التشريع . . كنت مصدره دائماً . . ولن
أرضى ما حبيت أن يكون شيء فوق رأسى سوى التاج . . حتى
تسقط هذه الرأس عندما يحين القضاء . . » .

وعاد الراكب الهارب إلى نقطة البداية . .

قالت زوجه فى أسى :

- « ليتك لم تذهب » .

- « لست نادماً يا امرأة » . .

- « لقد عادت الهموم والآلام تثقل قلبك . . » .

- « ليكن . . فقد رأيت دنيا جديدة . . » .

- « أتراحها أكثر من أفراحها . . ؟ » .

ضحك فى بلاهة ، وقال :

- « لكنهم سعداء بما هم فيه . . هم آلاف مؤلفة . . وكل واحد

يعيش بروح ملك . . ومع ذلك فإن رأى الذى لا أستطيع أن

أترحز عنه هو أن جبلة الملك . . شيء آخر غير بقية الناس . . » .

وأخذ يقهقه ويدق رأسه بقبضته :

- «تصوري . . عمر بن الخطاب نفسه الذى دانت له هذه الدنيا لا يبدو عليه سوى أنه مجرد واحد منهم . . أية إرادة تلك التى صنعت تواضع ذلك الرجل؟ دعى هذا الأمر فيبقى يعذبني إلى الأبد . . وادعى لنا الجوارى الحسان أريد أن أسمع العزف والغناء . . وأشرب . . أشرب كثيراً حتى تنزاح همومي» . . ومال عليها هامساً، والدموع عالقة في أهدابه، وهمس:

- «أعتقدين أن أيامنا السعيدة القديمة ستعود؟ . .»



عذراء المدائن

المدائن تتألق تحت أشعة الشمس كجوهرة ثمينة، والقصور الفخمة ذات الطراز الفارسي تبدو شامخة راسخة، والبساتين الخضراء المتناثرة ترسم أجمل مشهد نسقته يد الخالق، والجنود يروحون ويجيئون في أرديتهم الملونة الفاخرة، والسيوف تعكس بريقاً أخاذاً، والجياذ تصهل في الطرقات، فتملاً القلوب بالثقة والأمل في النصر الأكيد.

وفي شرفة أحد القصور الكبيرة، وقف أحد القواد العظام مرتدياً كامل ثيابه العسكرية، وأسند ذراعه على حافة الشرفة ثم ملأ رثيه بالهواء النقي المقعم بالروائح الذكية، وتمتم:

- «إنها مهنة سخيفة . . أتت في وقت غير مناسب . .»

ولم يكذ ينطق بالكلمة الأخيرة حتى شعر بيدين بضتين تغطيان عينيه، وابتسم وهو يحاول أن يمسك بمن أتت خلفه، لكنها عاجلته قائلة:

- «أتحدث نفسك يا سهراب؟؟» .

وأخذوا يضحكان بعد أن أرخت يديها، ثم قالت بعد فترة صمت:

- «ألم يكن من الممكن أن تتخلف عن الجيش؟؟» .

فتنهدها في ضيق، وقال:

- «إنها الحرب يا فل شاه» .

- «لكنني أخاف ألا تعود . . ومن ثم لا ننعم بالزواج . .» .

بدا على وجهه الغضب، وقال في خنق:

- «ما هذا التصور الغريب؟؟ أتعتقدين أن هؤلاء الحفاة العراة يستطيعون هزيمة جيوش كسرى؟ إن هزيمة طلائعنا على الحدود ليس لها سوى تفسير واحد، وهو الاستهتار . . لم تكن نتخيل أن يستطيع المسلمون اقتحام الحدود، فهم مجموعة من رعاة الأغنام والإبل . .» .

ثم أشار بيده صوب القصور المتزاحمة والحدائق المتناثرة، وقال بصوت أجش:

- «هذا العمران الذي صنعناه بأيدينا خالد لا يزول . . وما هي إلا جولة صغيرة نعود بعدها، وأمامنا تسير مواكب الأسرى والعبيد من المسلمين . . أنت تعرفين من نحن يا فل شاه» .

لقد جاء يودعها قبل رحيله إلى المعركة الفاصلة، وأفهمها أن عدد الفرس يربو على مائة وخمسين ألف جندي، وأن هذا الحشد الهائل قادر على أن يغزو العالم كله، وأن الأعداء مثلهم كمثل قزم يحاول أن يتصدى لعملاق أسطوري هامتة في السماء، لكنها قاطعته قائلة:

- «سمعت أنهم لا يرهبون الموت؛ لأن الموت في سبيل عقيدتهم هدف في حد ذاته، وأنهم بذلك ينالون الجنة...»
عاد يقهقه، ثم أردف:

- «القوة هي كل شيء... وأنا لا أدين إلا بمبدأ القوة... والجنة هي ما ترين... انظري إن بلادنا جنات رائعة جميلة... تفيض بالمتعة والنعيم... هذا هو الخلود ولا شيء غيره...»

وعلى الرغم من مظاهر الثقة والشجاعة إلا أنه كان يشعر بغير قليل من التوتر والقلق، ولهذا طلب بضع كتوس من الخمر، وأخذ يجرعها واحداً تلو الآخر، وحينما سمع نفيير الجيش ودعها وانصرف، واعدأ إياها بأن يعود خلال أيام قليلة كي يتم الزفاف، وتقام الأفراح، وتدق الطبول احتفالاً بالنصر والزواج.

كانت المعركة ضارية رهيبة، واستمر الصراع العنيف أياماً قاسية لا نهداً، فالمسلمون يتسابقون إلى الموت وكأنهم بذلك يحققون

أغلى أمانة، والفارس يأنفون من التراجع أو التقهقر، وصاح «حذيفة بن اليمان» قائد جيوش المسلمين، بعد استشهاد القائد الأول «النعمان بن مقرن»:

- «أيها الرجال.. يا أبطال بدر وأحد والخندق وتبوك.. إن النصر من الصبر.. ولنتصرن على عدونا بطاعتنا لله».

وغربت الشمس، وتراجع الرجال هنا وهناك، واحتشد المسلمون للصلاة وتردد نداء «الله أكبر» في الآفاق الشاسعة، وأخذ المسلمون يضمّدون جراحهم، ويوارون شهداءهم التراب، وفي ضوء القمر جلسوا يتحدثون عن ذكريات اليوم، وقصص البطولة والفداء وجلس «حذيفة بن اليمان» في خيمته يتشاور مع أعوانه من القادة، كان حاسماً واضحاً لا يعرف التردد أو الخوف، وأخذ يرسم على التراب خطوطاً مختلفة بسن رمحه، ويشرح كيف ستدور المعركة القادمة، ويسمى قادة الميسرة والميمنة، ويضع التوقيت المناسب للكر والفر، وبينما هم منهمكون في تدارسهم إذ دخل أحد الجنود يجر وراءه جندياً من جيش «المدائن» دخل المعسكر متسللاً.. كان الجندي يرتجف من الخوف، وتند عنه أصوات تنبئ عن الانهيار الشديد، وكان «حذيفة» ذا فراسة وذكاء بالغين، ومن ثم التفت إلى أحد رجاله، وقال:

- «أخبروا هذا الجندي أننا لا نقتل الأسرى ولا نكرههم على

شيء»، ولما فهم الرجل ما يقوله «حذيفة» أخذ ينظر بعينين يبدو فيهما الشك، وعاد حذيفة يقول:

- «أعطوه ماء وطعاماً . . .» .

وبعد اطمئنان الأسير، ابتسم حذيفة وقال:

- «جئت تتجسس علينا ويلك! نحن لا نملك إلا العقيدة التي في قلوبنا، والسيوف التي في أيدينا . . ولا نطمع في أرضكم أو مالكم» .

قال الأسير متلعثماً:

- «هذا كلام غريب . . فلماذا جئتم إذن؟؟» .

- «جئنا نخرجكم من عبادة العباد . . إلى عبادة الله . .» .

- «الحرب لا تقوم لشيء كهذا . .» .

ابتسم حذيفة، وقال:

- «نحن نسميها جهاداً في سبيل الله . .» .

- «وما الذي تفيدونه من ذلك؟» .

- «سعادة البشر . . ورضاء الله . .» .

هز الأسير رأسه، وأخذ يجول بنظراته بين القائد ورجاله، ثم قال:

- «لكنكم فقراء . . فكيف تعملون لسعادة الآخرين وأنتم لا تعرفونها؟؟» .

عاد حذيفة إلى الابتسام . . ثم أشار بإبهام يده اليمنى إلى صدره قائلاً :

- «السعادة هنا . . وليست في القصور والجواهر والمال والسيطرة» .

- تساءل الأسير إسفنديار :

- «وماذا ستفعلون إذا انتصرتم؟؟» .

- «نعرض دعوتنا . .» .

- «ثم ماذا؟؟» .

- «ونرفع الظلم عن المظلومين . .» .

- «ثم . . .» .

- «هذا كل ما في الأمر . .» .

- «أترغموننا على اتباع دينكم؟؟» .

لوح حذيفة بسبابته قائلاً :

- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] . . ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُزِمْنِ

وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] . . لقد أردنا أن نفتح الطريق أمام

العقول السجيئة لتفكر وترى . . وتختار ، نريد عالماً من الأحرار . .» .

وطال الجدل، وكم كانت دهشة الجندي الأسير، وهو يرى عالماً غريباً غاية الغرابة، السادة والعبيد في صف واحد، والقادة والجنود إخوة، والبساطة والثقة والمحبة تغمر الكلمات والتصرفات، لا نفاق ولا خوف ولا غطرسة، أهو في حلم؟؟ إن الفرق شاسع بين ما يراه في «المدائن» وقصورها ومجتمعاتها ودواوينها، وبين ما يراه اليوم على هذه الرقعة الرائقة من الأرض، إنه في خيمة القائد «حذيفة» لا يرى الكئوس والموائد العامرة بأطياب الطعام، ولا رقص ولا غناء، كل شيء يمضي هادئاً متسقاً دون تعقيد، وأفاق الأسير من أفكاره المصطحبة على صوت حذيفة:

- «والآن هل عرفت منا ما تريد؟؟ تستطيع أن تذهب إلى المدائن ولتخبرهم عنا بما تشاء».

قال الأسير في دهشة:

- «أطلقون سراحى؟؟».

- «ونوصلك إليهم سالماً إلا إذا أبيت...».

- «بل أوتر أن أبقي هنا...».

وعادت المعركة في اليوم التالي إلى الاشتعال، وأخذت كتائب الإيمان تخرق صفوف الأكاسرة، لقد سقطت كل الموازين المادية، العدد والعدة والقوة والمملكة الشاسعة، لا شيء يقف أمام الزحف

الإلهى الهادر . . أشياء كثيرة فى هذه الحياة لا يمكن تفسيرها على الوجه الصحيح إلا إذا تذكرنا قدرة الله . . وهرب قادة المدائن وأمرأؤها تاركين وراءهم الغنائم والأسلاب . . والأموال التى حرصوا دائماً على اصطحابها فى الميدان، فيها فخرهم وعجبهم، ومنها يستمدون قوتهم وسيطرتهم على أتباعهم . . وانتهت المعركة بهزيمة ساحقة لجيوش المدائن .

وفى يوم مشهود من أيام التاريخ خرج أهل «المدائن» يستقبلون واليهم الجديد الذى اختاره لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . وأطلت النسوة من النوافذ والأبواب، وتراص الرجال والأطفال على جانبي الطريق . . لقد ألفت أهل المدائن المواكب الرسمية الفخمة، حيث مظاهر الأبهة والعظمة . . ولا شك أن موكب النصر الذى أعده المسلمون لقائدهم المظفر سوف يفوق الوصف والخيال . . وأخيراً جاءت اللحظة الحاسمة، وظهر موكب الوالى . . يا عجباً . . لقد أبصروا رجلاً يركب حماراً . . وتدلّت ساقا الرجل على جانبي حماره . . وساد الصمت والذهول . . وهمس رجل فى أذن جاره :

- «أين التاج والصولجان؟» .

- «أين الحراس والحجاب؟؟» .

- «لا تضيع الوقت سدى . . هيا لنهتف للحاكم الجديد . .
ولنقرب منه . . ولنرفع عقيرتنا بالهتاف لعلنا نصبح من
المقربين . . ».

وتعالت الهتافات وساد الهرج والمرج ، وعندما أشار الوالى
الجديد «حذيفة بن اليمان» بيده ساد الصمت مرة أخرى ، ثم نادى
بأعلى صوته قائلاً :

- «إياكم ومواقف الفتن؟؟» .

رد عليه رجل :

- «وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟» .

استطرد حذيفة حديثه قائلاً :

- «أبواب الأمراء . . يدخل أحدكم على الوالى أو الأمير ،
فيصدقه بالكذب ، ويمتدحه بما ليس فيه» .

وسكت الناس . .

إن تحولاً خطيراً يحدث . .

هرول القائد الفارسى إلى قصر حبيبتنه ، فوجدها شاحبة
شاردة ، قال وهو فى لهفة عجلى :

- «هيا بنا يا فل شاه» .

قالت :

- «إلى أين يا سهراب؟» .

- «نفر من وجوه الغزاة، ونبحث عن أرض جديدة، نعيش
مثلما كنا نعيش . . .» .

وجاءته كلماتها حاسمة محددة :

- «لن أغادر المدائن» .

- «لقد أعددت العدة للهرب . . أم تريد أن تكونى واحدة من
السبايا؟» .

- هزت كتفها فى غير اكتراث قائلة :

- «لا يهم . . .» .

- «لا أفهمك . . .» .

- «لقد مللت حياتى القديمة . . إن أحداثاً جليلة تمور فى
داخلي . . .» .

- «لا تضيعى الفرصة . . .» .

- «لن أضيعها، ولهذا سأبقى . . إن كلمات المسلمين قد غزت
عقلى وقلبى وسيطرت على مشاعرى . . .» .

وقال هو يمسك بيدها متوسلاً :

- «وحبنا الكبير؟؟» .

قالت وهى تجول بنظراتها فى الآفاق الرحبة الممتدة إلى بعيد :

- «هناك ما هو أكبر منه . . .» .

- «ماذا؟؟» .

- «حب الله . . .» .

- «حب الله أم حب واحد من أبطال المسلمين؟؟ أنا أعرف أنهم

أتوا إلى هنا . . .» .

لكنها صرخت فيه :

- «اخرج . . وإلا استنجدت برجال «حذيفة بن اليمان» . . .» .

وضع خنجره الذى كان قد استله فى الغمد، ثم أخذ يتراجع . .

ويتراجع . . حتى اجتاز عتبة الباب . . وسرعان ما أغفلته وراءه

وهى تتهدد قائلة :

- «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله..» .

وأشرق على «المدائن» يوم جديد .



مصراع طاغية

قهقهه أبو جهل ، وانفجرت أساريره فى فرحة شيطانية غامرة ، ثم رفع هامته فى كبرياء ، ثم اكتسى وجهه بمسحة من الغضب المكبوت ، وتمتم :

- «لقد أفلت منا محبذ يوم أن هاجر ، وكان هذا الأمر نكبة كبرى بالنسبة لنا . ترى لماذا لم نحسم المعركة منذ البداية ، ونقضى على ذلك الدين وصاحبه؟؟ ومع ذلك فإن المسلمين يتصرفهم الأخير قد أتاحوا لنا فرصة نادرة للقضاء عليهم . هذا اللقاء فى بدر هو يوم المنى ، ولن تغيب شمس هذا اليوم قبل أن يدفن الأمل الكبير فى قلوب المسلمين ، ثم نهيل عليهم التراب . . » .

ثم اتجه ببصره صوب الخيام المضروبة عند ماء بدر وصاح بأعلى صوته :

- «يارهط مكة . اليوم يومكم ، فما هى إلا جولة أو جولتان . ثم ننحر الإبل ، ونذق الطبول ، ونتساقى كتوس الخمر ، وترغم النسوة بأناشيد النصر والمجد والفخار . . » .

وتجمهر حوله رجالات مكة بسيوفهم وحماستهم الفائرة،
الجميع يلوحون بأسلحتهم عاليًا، ودخل عليهم رجل تقدمت به
السن، وقال بصوت راعش واهن:

- أيها الرجال تعلمون أن القافلة القادمة من الشام قد نجت من
رباط محمد ورجاله، وليس لنا بعد ذلك من هدف.. فلماذا
الحرب؟؟ ألسفك الدماء، والاستسلام للحقد والكراهية؟؟

صاح أبو جهل في ثورة:

- «ليس الهدف هو إنقاذ قافلة التجارة يا رجل، إننا نريد أن
نسحق تلك الدعوة الجديدة، ونقضي على كل تطاول ينال من
كبريائنا وسلطاننا ودين آبائنا..».

ثم التفت إلى من حوله من الشباب وهتف بهم:

- «أتوافقون على تلك النصيحة المشبوهة..».

فصاحوا قائلين:

- «الموت لمحمد وصحبه.. النصر لنا..».

وعاد أبو جهل إلى سخريته وهدر قائلًا:

- «قلبات إله محمد ليخلصه من بين أيدينا..».

وتضحك الشباب بينما قال الشيخ العجوز:

- «أنتم لا تعرفون الحقيقة . . هذا هو رأيي . . بل ورأي أبي
سفيان أيضاً . .»

اقترب أبو جهل منه، وأمسك بكتفه، وهزه في جفوة وهو
يقول:

- «إذا تكلم السيف، فليصرف الحكماء إلى صوامعهم» . .
وفي هذه الأثناء كان محمد رسول الله ﷺ، يتحنى جانباً، ويرفع
يديه إلى السماء ضارحاً، ويطلب منه العون والنصر، فالأعداء
كثيرون والمسلمون قلة، وأسلحة الكفر تملأ السهل والجبل، وأخذ
الرسول يردد دعواته في صدق وإلحاح:

- «اللهم إن تهلك هذه العصابة فليتبعد في الأرض»، ويلتف
حوله المهاجرون والأوائل، والأنصار من أهل المدينة، ويبايعونه على
الجهاد حتى النصر أو الشهادة، ويبذلون استعدادهم لأن يقدوا
عقيدتهم بالنفس والمال والولد، وأن يخوضوا وراء نبيهم البحار،
ويشقوا القفار، ويتكبدوا المشاق من أجل نصره عقيدتهم، تلك
العقيدة التي تشربتها أرواحهم وقلوبهم وعقولهم، فأصبحت
عاطفة وفكرًا وسلوكًا، وخلقتهم خلقًا جديدًا، إنهم يأملون في
ابتعاث عالم جديد، مشرق بالحب والخير والعدل، تتألق فيه المعاني
الخالدة، وترد للإنسان كرامته، وتحفظ له حرته وشرفه، وقال
صحابي جليل:

- «أيها المسلمون . . انظروا إلى الأعداء . . ماذا ترون؟» .

- ويرد عليه آخر :

- «يا عجباً . . إنهم قلة في أعيننا . . إن قلبي يمتلئ بفرح غامر . . أشعر أنهم لا شيء . . وأن ملائكة الله تحرسنا . . بل وتحمل السلاح لتحارب معنا . .» .

ويبتسم الرسول ﷺ ، ويشرق وجهه بالنور ويشهرهم بالنصر ، متى أخلصوا النية لله ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فيسرى الأمل واليقين من قلب القائد إلى قلوب الجنود ، ويمتلئ الأفق بأناشيد قدسية ، تدركها الأرواح وتندق طبول الحرب ، وتتصاعد صيحات «الله أكبر . . الله أكبر» ، وتلتحم الصفوف ، وتتلاقى السيوف ، وتنطلق السهام ، وتختلط صيحات الحرب ، بأنات الجرحى ، وحمى الوطيس ، ومن جديد تتعالى صيحات الكتيبة المؤمنة :

- «الله أكبر . . الله أكبر» .

ويهتف أبو جهل ، وقد أرققه الصراع :

- «هذا النداء يزلزل كياني ، ويشير الغضب في نفسي» ، ويصرخ

بأعلى صوته ليرد على شعار المسلمين :

- «أعل هبل . . أعل هبل» .

ويتنظر أن يردد رجاله الصيحة، فيسمعها تخرج من بين شفاههم خابية واهنة، كأنها أنات محتضر، فيشتد به الغيظ والكمد، وينظر أبو جهل حوله، فيرى صناديد قريش يتساقطون صرعى والدماء القانية تخضب وجه الرمال العطشى، فيستبد به الخوف الممزوج بالحق، فيضرب ضربات عشواء، لا تغنى ولا تسمن من جوع، ويرى أبو جهل أن صفوفه قد تمزقت، ورجاله يتراجعون، إنها الكارثة التي لم يكن يتوقعها. . ما معنى ذلك؟؟ هل يفلت محمد وصحبه هذه المرة أيضاً؟؟ لكن لماذا يفكر الآن في محمد وصحبه، فليفكر في نفسه. . لماذا لا يهرب بجلده، إن حياته أئمن وأهم وأعظم من مكة ومجدها ودينها وألقتها، وهل يبقى حتى يقتله المسلمون ويروون أرض بدر بدمه؟؟ إنه لعار ما بعده عار!!

لكن ماذا يقول الناس عنه لو فر من المعركة؟؟ وماذا يكون موقفه لو وقع أسيراً في أيدي محمد ورجاله؟؟ أيرضى لنفسه أن يقف ذليلاً مطأطئ الرأس، وعيون المسلمين ترشقه من كل جانب، ومحمد. . محمد يرمقه بنظراته الصافية الباسمة دائماً. . هذا هو خزي الأبد، وتلفت أبو جهل حوله، فوجد رجاله يواصلون الفرار والمسلمون يلاحقونهم بالقتل والأسر، وهم يهتفون «الله أكبر. . الله أكبر» وجمد أبو جهل في مكانه، حاول أن يتحرك فلم

يستطع . . أصبح كالأشل . . « ترى هل أصابني سحر محمد؟ »
وسمع جريحاً إلى جواره يقول :

- « شربة ماء . . شربة ماء . . إننى أموت . . » .

واقترب منه أبو جهل وهتف :

- « مَنْ ؟؟ » .

- « لك الحق فى ألا تعرفنى . . هذا يوم الهول الأكبر . . عليك
اللعة . . أنت الذى قدتنا إلى حتفنا . . ما الذى فعله بنا محمد . .
رجل أراد أن يقول لنا كلاماً فصددناه . . وأراد حقوق رجاله
وأموالهم فحاربناه . . الدنيا ليست لنا وحدنا . . فلماذا نريد أن نغلى
على الخلائق ما نريد ظلماً وطغياناً . . » .

ولم يتمالك أبو جهل نفسه من الغضب، فاستل خنجره،
وأغمده فى صدر الجريح، فقتل عليه . .

وجاء صبيان صغيران هما ولدا عفراء، واقتربا من أحد المقاتلين
المسلمين، وقالوا له :

- « بالله يا عم دلنا على أبى جهل » .

- « لماذا؟؟ » .

- « نريد أن نجهز عليه » .

وابتسم الصحابى المسلم وهو يشير نحو الطاغية . .

وما هي إلا دقائق حتى كان أبو جهل يرقد على الرمال الصفراء
مخضباً بدمائه، واستسلم للرقاد وهناً، وعجزاً، وأغمض عينيه في
استسلام.. ودارت في رأسه خيالات لحياة طويلة ممتلئة بالصراع
والعنت.. قصة الرجل الذي بعشه الله بدين جديد يبشر بالحب
والصفاء والرحمة والتسامح.. الكلمات التي جاءت قرآناً
يوحى.. سنوات الصبر والبلاء التي تحملها نبي الله.. ثم الشراسة
التي قابله بها أبو جهل وأساطين الطغيان والفساد في مكة.. القصة
توشك أن تنتهي.. هنا في هذا المكان البعيد المهجور يرقد أبو جهل
رمز كل عناد وحقد وشرك.. قصة كل زمان ومكان.. الأرض
تدور من حوله.. يغيب عن الوعي ثم يفيق.. الزمان لا يعود إلى
الوراء، ولا حيلة فيما جرى، أي شيطان قد سد منافذ قلبه
وعقله.. أهذه هي النهاية.. وشعر أبو جهل بشيء ثقيل يضغط
على صدره، فتح عينيه، إنه يرى رجلاً يعرفه تمام المعرفة من أتباع
محمد، وقال أبو جهل في صوت واهن:

- «لمن النصر اليوم؟؟».

وجاءه صوت الإنسان الحديد المؤمن:

- «الله الواحد القهار يا أبا جهل..».

وارتم رأسه جانباً، وأغلق عينيه إلى الأبد وسقط الطاغية..
وسقط معه العناد والشرك.. وانتصرت إرادة الله..

رجال الله

ألقت «فاطمة بنت الوليد» بنظرها خارج الخباء، وأطالت النظر فيما حولها مفتونة بروعة المناظر، وجمال الطبيعة وجلالها . . إن بلاد الشام رائعة حقًا، حتى وكأنها قطعة من الجنة التي وعد الله بها عباده المؤمنين، وملأت فاطمة رثيها بالهواء الرطب العليل، ثم عادت أدراجها إلى حيث كانت تجلس من قبل لتواصل إنضاج الطعام الموضوع في قدر فوق النار، وهي تغمغم بأرجوزة عربية مشهورة، تروى عن الجهاد الأكبر وانتصار جيوش المسلمين بقيادة أخيها خالد على جيوش الرومان.

ولم تكد فاطمة تنتهي من أرجوزتها حتى أحست بدبيب خطوات عجلى تدلف إلى الخباء، وقبل أن تدبر وجهها لترى من الداخل تنأى إلى سمعها صوت إحدى صويحاتها، وهي تقول:

- «أبشرى يا ابنة الوليد . . إنه ليوم عظيم حقًا».

فقال فاطمة في لهفة:

- «ماذا تعنين يا أختاه»؟

فأجابت :

- «أوه يا فاطمة، إننى لا أعنى غير شيء واحد، وهل يفكر
نساؤنا ورجالنا فى غير الحرب»؟

فتركت فاطمة القدر والنار المشتعلة تحته وتوجهت بكليتها إلى
صديقتها وقد غمر البشر قسماات وجهها وبرقت السعادة فى
عينها، وهى تقول :
- أعلم ذلك .

- واعلمى أيضاً أن جيوشنا قد تخطت أسوار دمشق ففتحت
المدينة وأبوابها لموكب الحرية والنور والإيمان . .

فطغت على فاطمة موجة غريبة من الفرح، وهتفت :

- أحق ما تقولين؟

- ليس هنالك ظلال من شك فيما أرويه يا فاطمة، وبعد
لحظات قصار سوف تسمعين تكبيرات النصر وهى تملأ الآفاق إيذاناً
بالنصر الجديد .

فأقبلت فاطمة على صديقتها تقبلها وتشكرها على هذه البشرى
العظيمة التى طال ترقبها لها، وقالت :

- أعذرني يا أختاه، إنه لنبا كبير حقاً، لقد طال حصارنا لهذه المدينة الحصينة حتى كاد اليأس يتسرب إلى نفسى، إن الرومان لا يسلمون لنا أنفسهم وديارهم بهذه السهولة واليسر . .

- صدقت . . ولكن لا تنسى أنهم قوم ظالمون مستغلون وأهالى البلاد هنا لا يمكن أن يدافعوا عن قوم أذاقوهم الهوان والعسف .

- أجل يا أخت . . إن الرومان يحاربون بلا هدف، أو قولى إنهم يموتون فى سبيل مجد زائف . . أما نحن فنبذل دماءنا من أجل شىء كبير نؤمن به . .

فابتسمت الصديقة ابتسامة ذات معنى ثم همست قائلة :

- آه يا فاطمة لو تسمعين ما يقال لأخيك خالد من مديح وثناء، إنه سيف الله بلا منازع . . بطل قمع الردة وقاتح العراقيين، وهازم الرومان فى أرباض دمشق . . لكم الفخر يا آل الوليد، لقد بنى لكم خالد مجداً على الدهر، لا تبلى جدته، ولا تغفى آثاره . .

فأجابت فاطمة فى تواضع ظاهر :

- إننا نصول ونجول بروح الله يا رفيقة ولا مجد لنا كأفراد، ولكن المجد والخلود لدين الله وللإسلام الذين أخرجنا من الظلمات إلى النور، وخرج بنا من ضيق الجزيرة وانعزالها إلى هذا العالم الكبير الواسع لندعو ونحرر وننشر النور . . .

ولم تكذ فاطمة بنت الوليد تكمل عبارتها حتى سمعت تكبيرات النصر تنساب من بعيد فتجاوبها صيحات التهليل من كل مكان في معسكر المسلمين، وخرج الأطفال والفتيات ومن بقى من الرجال يهزجون بالأشعار والأراجيز، ويلعبون بالسيوف والرماح، ويشبون هنا وهناك في فرح غامر... بينما انتحت فئة ثانية من الرجال ناحية أخرى وأخذوا يؤدون صلاة الشكر لله من أجل هذا النصر المؤزر الذى طال ترقبهم له، وجلس البعض الآخر يفكر فى المعركة القادمة ويضع الخطط لزحف جديد تتسع به رقعة الإسلام، وتنتشر به كلمة الحق..

وأسرعت الصديقتان نحو باب الخباء لتمتعا نظريهما بهذه المواكب المبهجة، وتسعدا بساعات النصر الغالية، ولم تمالك فاطمة نفسها أن قالت:

- من مبلغ الخليفة عنا بهذا النصر العظيم، لكم تمنيت يا أختاه أن يكون لى جناحان فأطير بهما إلى أبى بكر كى أحمل إليه نبأ الفتح الذى رزقنا به..

- لا تقلقى من أجل ذلك، إن لم نرسل الرسل إلى الخليفة فسوف تسير الركبان بهذا النصر، وتغنى به فى كل مكان..

وبعد فترة صمت قالت فاطمة فى شبرود:

- واشوقاه ..

- إلى الديار البعيدة؟؟

- أجل ..

صدق يا فاطمة .. لقد طالت بنا الغربية ولم تستطع بهجة الشام، ونضرة أراضيها أن تنسينا ديارنا رغم جفافها وجدها.

الوطن غال .. يدفعنا إليه حنين، ويشدنا إليه ذكرى، لكن ماذا أقول؟؟ يجب أن تعلمي أن عزاءنا الوحيد هو أن غربتنا من أجل الله وكفى ..

وبات جلياً أن انتصارات المسلمين الكبرى قد بثت الذعر في نفوس الأعداء، وكان ذكر هذه الانتصارات مقترناً دائماً باسم خالد ابن الوليد، وأصبح اسمه هو الآخر كافياً لأن يشير الاضطراب والهلع في قلب العدو، وعلم جنود المسلمين -بل أيقنوا- أن وجود خالد على رأسهم بشير بالنصر، وباعث للثقة، وخيل إلى الجميع أنه رجل الساعة بلا منازع، وأنه خير من حمل اللواء، وأنه لا يقل أهمية وعظم منزلة عن الخليفة نفسه، وأوشك بعض المفتونين أن تتغير نفوسهم، وينقلب إيمانهم بالمثل والمبادئ إلى إعجاب بالشخصية وتقديس لها، وفي الصراع الدامي، والحرب لا تفتقر، سارت الأمور دون أن يلتفت أحد إلى هذا التطور الخطير وخالد

ماضٍ في طريقه لا يفكر إلا في رسم الخطط ، وتدير المعارك
وتصرف الأمور في البلاد المفتوحة ، ولا يفتأ بين لحظة وأخرى أن
يرفع بصره إلى السماء شاكرًا الله على ما وهبه من توفيق وما حقق
على يديه من نصر .

وفجأة ساد الصمت والوجوم . .

وخفت الصيحات رويداً رويداً . . ثم اختفت .

حتى الأطفال الصغار كفوا عن اللعب والترغم بالأهازيج
والأغاني . .

وأخذ الرجال يتحلقون في أماكن مختلفة وعلى وجوههم أسف
وحزن . . والحيرة والقلق يسيطران على الجميع . .
تري ماذا حدث . .

هل هناك جديد بشأن المعركة؟؟ هل تغيرت النتيجة فتحول
النصر إلى هزيمة ، وأوصدت دمشق أبوابها في وجوه المنتصرين؟
أم أن أحد الأبطال القواد قد قضى نجه شهيداً فترك وراءه الحزن
والأسى؟

وصارت فاطمة في حيرة من أمرها ، وأخذت ضربات قلبها
تتسارع إشفاقاً وخوفاً ، وصديقتها بجوارها قد استولت عليها
الدهشة أيضاً .

قالت فاطمة وقلبها يرتجف :

- ماذا هنالك يا أختاه؟؟

- لا أدري، لكن قلبي ينبشني أنه خطب جلال .. قلبي لا يكذبني أبداً ..

وفكرت فاطمة في أن تبعث بصديقتها لتستجلى حقيقة الأمر، وتعود بالخبر اليقين غير أنهما فوجتا بخالد بن الوليد يقبل في هذه اللحظة مستأذناً في الدخول، فتوارت الصديقة بينما برزت إليه أخته فاطمة واستقبلته في لهفة غامرة حامدة الله على سلامته ثم هنأت بالنصر الذي أحرزه في كلمات سريعة مضطربة، ولم تستطع أن تخفي قلقها على هذه الظاهرة التي تبدو في المعسكر منذ لحظات ..

وألقى خالد بن جاد سيفه في ركن من أركان الخيمة ثم غمغم وقطرات العرق تتقاطر على جبهته السمراء .

- جرعة ماء يا فاطمة، إن الظمأ يكاد يقتلني .

وتكلمت فاطمة وهي تقدم له الماء :

- هل جد جديد؟ أراك متغير السحنة، ثم إن المعسكر يسوده الوجوم منذ لحظات .

فأسلمها خالد إناء الماء، وصمت برهة ثم قال وقد تبللت عيناه بالدموع :

- وردت إلينا أنباء تقول إن الخليفة قد ذهب إلى الرفيق الأعلى ..

فصرخت فاطمة على الرغم منها :

- أمات أبو بكر؟

- أجل يا فاطمة .. مات ونحن أحوج ما نكون إليه .. ألسنا ننازل الآن أقوى دولتين في الدنيا .. الفرس والرومان؟؟

فأطرقت فاطمة وقد انسابت دموعها، وقالت :

- فليرحمه الله .. أدى الأمانة وحمل الذمار وجدع أنف المرتدين، وقضى على الفتنة، ثم رمى بنا في شتى أنحاء الدنيا لنحقق كلمة الله في الأرض .. له الجنة ..

وظلت الدموع تنهمر من عيني فاطمة لكن ماذا يجدي البكاء والنحيب، وقد حم القضاء، ونفذ قدر الله .. وتحققت سننه التي لا فرار منها ولا فكاك؟ صحيح أن المصاب في أبي بكر فادح والفاجعة فيه لا تضارعها فاجعة وخاصة في هذا الوقت العصيب بالذات، لكن لا حيلة فيما أراد الله ..

وفكرت فاطمة فيمن سيخلف أبا بكر، وتساءلت بينها وبين نفسها عن مدى كفاءة الخليفة الجديد، وهل سيحمل العبء بشجاعة وإيمان مثلما فعل أبو بكر؟ وهل سيحقق الله على يديه

النصر؟ وهمت أن تسأل أخاها عن ذلك كله، لكنها استحييت أن تثير مثل هذه الخواطر في وقت لا يفكر فيه الناس -على ما يبدو- إلا في المصائب الفادحة الذي نزل بهم، واختطف أبا بكر من بينهم.

وقبل أن تترك فاطمة مكانها سمعت أخاها يقول:

- وأوصى أبو بكر قبل موته بأن يخلفه عمر بن الخطاب.

- فقالت فاطمة في دهشة:

- عمر..

- أجل..

- لكن..

- لكن ماذا يا فاطمة؟

- أعنى أن فيه شدة..

- وهل حكم الناس يكون عن طريق التفريط والتهاون؟..

- ثم إنه يا خالد يحمل لك في نفسه شيئاً منذ زمن بعيد..

فقال خالد في لهجة صارمة تحمل في ثناياها شيئاً من اللوم

الواضح:

- لا تنسى يا فاطمة أن النبي ﷺ قال: جعل الحق على لسان

عمر، وتقويم الرجال يا فاطمة يجب ألا يخضع لعواطفنا،
ورغباتنا الشخصية . .

وسكتت فاطمة . .

لقد كبر أخوها في عينيها أكثر من ذي قبل . .

إن أخاها قائد يفهم واجبات القيادة، وفي الوقت نفسه جندي
يفهم أصول السمع والطاعة ولا يحمل لخليفته -رغم ما بينهما- إلا
الثقة والحب والتقدير؛ لأن الغاية الكبيرة التي تجمعهما لا تدع
فرصة للمطامع الشخصية أن تتسلل بينهما بالتفرقة والعداء . . وفي
الواقع لم يكن خالد يفكر بعد ذلك إلا في مواصلة الزحف وتطهير
دمشق وما حولها من الأعداء . .

لم يكن خالد يعلم أن هناك رسالة أخرى قد وصلت من الخليفة
عمر بن الخطاب، ومن البديهي أنه لم يكن يعرف -تبعاً لذلك- ما
تخويه هذه الرسالة الخطيرة، ولم يكن أحد يتصور أن يحدث ذلك
في هذا الوقت بالذات؛ لأنه يموج بالأحداث الجسام، والأعجب
من ذلك أن «أبا عبيدة الجراح» قد كتم أمر هذه الرسالة عن خالد
أمير الجيش، ولم يكن أبو عبيدة في هذا الوقت إلا أمير لواء من
ألوية الجيش.

وظل أمر الرسالة مطوياً عن الجميع حتى انتهى المسلمون من أمر

الرومان في دمشق، وإرساء قواعد العهد الجديد في المدينة، وما أن استتب الأمر، وهدأت الأحوال حتى أقبل أبو عبيدة على خالد، وفي يده الرسالة التي بعث بها عمر . .

كانت أبو عبيدة متردداً . .

فالواجب يدفعه دفعاً لأن ينفذ أوامر الخليفة الجديد دون إبطاء، وحبه لخالد، وتقديره لبطولاته يمنعانه من أن يصرح بالحقيقة الرهيبة، يقول لخالد: إن الخليفة قد عزلك وأنت في أوج مجدك . . والأقسى من ذلك أن أمير الجيش الجديد سيكون أبا عبيدة نفسه . . يا له من موقف صعب . .

وزاد من صعوبته أن خالداً إنسان كبير وأن أبا عبيدة هو الآخر رجل فاضل بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . .

ولم يجد أبو عبيدة مناصاً من أن ينفض ما بقلبه في محضر خالد . . وفي تواضع وتأثر همس أبو عبيدة بفحوى الرسالة التي بعث بها عمر فتقبل خالد الأمر بهدوء، وكأن لم يحدث حدث ضخم .

لقد كان يجاهد في سبيل الله، وهو قائد للجيش كله والآن لم يعد كما كان، لم يكن هذا يمنع من أن يظل مجاهداً في سبيل الله - فليحمل سيفه، وليمض في طريقه . .

فالْحَرْبُ هِيَ الْحَرْبُ . .

وكلمة الحق التي يحملونها جميعاً لم تتبدل .

والغاية الكبيرة التي يعمل لها الجنود ما زالت تنير الطريق ولا
ضير أن يكون خالد جندياً أو قائداً، وأمير المؤمنين يجب أن يكون
مطاع الأمر ومسموع الكلمة والفترة الحرجة التي تمر بها الدولة
الوليدة يجب أن تتسم بالهدوء والثقة وإنكار الذات .

وبعد فترة صمت قال خالد لأبي عبيدة :

- يرحمك الله . . ما منعك أن تعلمني حين جاءك الأمر . . ؟

وأجابه أبو عبيدة :

- إنني كرهت أن أكسر عليك حربك، وما سلطان الدنيا أريد
ولا للدنيا أعمل، وكل ما ترى سيصير إلى زوال وانقطاع وإنما نحن
أخوان، وما يضير الرجل أن يليه أخوه في دينه ودنياه .

وتناثرت الشائعات والوشايات والفتن .

لم يستمع خالد لأقاويل الوشاة، ولم يلقَ بالاً لأولئك الذين
حرضوه على التمرد والعصيان وصرف النظر عن همسات الإثم
التي تفوه بها المفتونون بمجده وبطولاته والتي تنفشها الشياطين بين
الجموع، وحينما قالت له أخته فاطمة :

- كان قلبي يحدثني أن ابن الخطاب سوف يفعلها ويعزلك ، لم يعلق على حديثها بشيء .

وفي الصباح التالي كان أبو عبيدة على رأس الجيش مكان خالد . . بينما حمل خالد سيفه ومشى خلفه أطوع من بناته ، وليس في قلبه مثقال ذرة من حقد أو تمرد .

عندئذ نظرت فاطمة إلى أخيها في إعجاب وتقدير ثم نظرت إلى أبي عبيدة في غير ما سخيمة أو أسف ثم غمغت في أثر :

- الله أكبر . . لكم النصر أينما سرتم أيها المؤمنون . . يا رجال الله . .



ابن سبيل

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وقليل من الضوء الخافت بدأ يتسلل عبر ثغرات النوافذ والأبواب، وفتح الشاعر الكبير «جرير» عينيه، فوثب على الفور واقفاً وهو يلکز زوجته :

- «ويحك يا امرأة، لقد أشرق النهار، وكان يجب أن تكون راحلتى فى طريقها الآن إلى مقر الخليفة الجديد «عمر بن عبد العزيز».

فقالت زوجته وهى تشاءب :

- «صدقت، إنها فرصة العمر، وما كل يوم يولى خليفة أو أمير جديد، هيه هات أوزانك وقوافيك وتخير كلماتك بدقة فعمربن عبد العزيز ليس بالرجل الهين، وما ظنك برجل استقبال الإمارة بالدموع وجلس على كرسيها زاهداً فيها؟».

وهتف جرير بخادمه كى يعد له ماء الغسيل، ثم يجهز الطعام والشراب، وما إن اطمأن إلى ذلك حتى التفت إلى زوجته قائلاً :

«لا أظن أن حاكمًا من الحكام، أو أميرًا من الأمراء يستطيع أن يعادى الشعر، إنه لسان الدولة وسجلها المجيد، وسيف بتار فى المعارك الكبرى، هذا أمر بديهي يا امرأة».

فأردفت مشفقة:

- لا أظنه يعادى الشعر، لكن...

- لكن ماذا يا امرأة؟

- «أعنى أن الشعر يد تمتد تطلب المال، الثمن، وعمر بن عبد العزيز من رجال الله، لا تستهويه المدائح ولا تسحره الكلمات الطنانة، إنه طراز جديد من الرجال حسبما سمعت، أخاف أن تكون دولة الشعراء قد دالت كى تقوم على أنقاضها دولة العلماء العاملين...».

هتف جرير محتدًا:

- ويحك يا جاهلة، الشعر ديوان العرب، لو مات الشعر لدالت دولتنا، ذلك هو منطق التاريخ والأحداث.

ضحكت الزوجة ثم دفعته دفعًا رقيقًا فى دلال، وقالت:

- أوه... إنك تأخذ الأمر مأخذ الجد، وما قصدت إلا إثارتك حتى تبدأ رحلتك نشاطًا منفعلًا فتشتعل قريحتك... أريد أن تفكر

كثيراً وتقده زناد فكرك . . إن عمر رجل كبير الشأن، وشعرك فيه
يجب أن يكون كبيراً مثله .

فقال وقد غزته موجة من الانفعال والكبرياء مترنماً، بيت رائع
له من الشعر يردده الناس في كل مكان :

أستم خبير من ركب المطايا

وأندى العالمين بطون راح؟

ابتسمت قائلة :

- أجل . . أجل يا جرير .

- نحن لها يا ساذجة، وزوجك من زمن بعيد أصبح سيد
الشعراء وحامل لواء الفخار والمجد بينهم، ولذا أصبحت زينة
المجالس والمقرب لدى الحكام، فطيبى نفساً، وإلى اللقاء .



وأخذ جرير - فيما بينه وبين نفسه - يفكر فيما قالت زوجته عن
عمر ويستعيد ما يتناقله الناس عنه، ثم يتذكر الأزمة المالية الخائفة
التي دهمته، فاضطر إلى ضغط مصروفاته، متوجساً خيفة من
المستقبل، بل إنه أرغم نفسه إرغاماً على مدح أقوام ليسوا في منزلة
كبرى إذا ما قيسوا بالحكام والأمراء الذين كال لهم المديح من قبل،
بل إنه في قرارة نفسه كان يدرك أن هؤلاء الأقوام أجدر بالهجاء

والقدح، لكن ماذا يفعل والحاجة لا ترحم، ومظاهر الترف - التي يتشبث بها كشاعر كبير - تدفعه دفعاً لأن يصطنع آيات البطولة، ويضيفها على أقوام ليسوا أهلاً لها وينسج منها المدائح الطوال.

أجل إن أزمته المالية ما برحت مستحكمة، فالحكم السابق ظل مريضاً لفترة طويلة والهدايا والمنح والجوائز التي كان يصدقها على الشعراء قد توقفت أو كادت، ومن ثم فإن تولية حاكم جديد فرصة ذهبية لا يجب أن تفلت من يده، وإذا لم ينل جوائز شعره في مهرجانات الحاكم الجديد، فهل ينالها في مواكب الرثاء والحزن والدموع؟ إن القلوب المكلومة لا تهزها أريحية إحسان أو تقدير للشعر، لا، لا إن عمر بن عبد العزيز ليس كما زعموا عدواً للشعر والشعراء فقد حكم الحجاز من قبل بالعدل والبر وملا الآفاق عدلاً ونوراً، وعقد مجالس الشورى وسعى إلى العلماء في ديارهم وأبى أن يسعوا هم إليه، وهاجم الطغاة والطغيان دون أن يهاب بطش الأمير الأكبر، مثل هذا الرجل لا يظلم أحداً، وبالتالي لن يظلم الشعراء أو ينقص من قدرهم ..



وانطلق ركب جرير إلى حيث يقيم الحاكم الجديد، وخفقات الأمل الحلو تتراقص بين جوانحه، ومن آن لآخر يهزه إلهام الشعر ويبعث ما يشبه القشعريرة أو الرعدة في جسده، فتساب الأشعار

طلقة جزلة رقيقة رصينة، متمدحاً بفارس بنى أمية «وفتها العادل،
ورجلها الأول» عمر بن عبد العزيز.

وعلى طول الطريق كانت الأنباء تترى وروايات عجيبة تشبه
الأساطير يتردد صداها في كل مكان وتصرفات لا يكاد يصدقها
عقل تتناثر في جميع الأنحاء وهتاف باسم عمر يملأ الآفاق.

ولعبت الهواجس برأس «جرير» حينما قال له أحد الأعراب في
الطريق:

- ويلك يا جرير، لن تعود إلا بخفي حنين، ألا تعلم أن عمر
قال في أيام حكمه الأولى حين جمع الناس:

- «أما بعد، إن خلفاء بنى أمية قد كانوا أعطونا عطايا، ما كان
يصح لنا أن نأخذها وما كان يصح لهم أن يعطونا إياها، وإنني
محاسب عليها اليوم نفسي، ولذلك أردتها إلى بيت مال المسلمين،
وأبدأ بنفسى وأهل بيتي».

هذا ما قاله عمر، فماذا ترجو من رجل مثله يا جرير؟ لقد انتزع
جواهر زوجته وردها إلى بيت المال، ورد إلى نصراني أرضاً كان قد
اغتنبها أحد أشراف بنى أمية وصادر كثيراً من أملاك أولاد عمه.

رد جرير في غير قليل من الحيرة والقلق:

- هذا ما يجعله أرفع قدراً في أعيننا ويزيد من أملنا فيه.

وبرغم بذور الشك التى أخذت تنمو فى نفس جرير إلا أنه مضى فى طريقه، إن تلك الأخبار عن عمر تزيد مادته الشعرية ثراء وعطاء، وهل يضايقه أن يكون الخليفة عادلاً وباراً، زاهداً فى متاع الدنيا وعبثها؟ ليس الأمر كما يتوهم الناس إن عمر صاحب عقل كبير، وزهد صادق وخلق سمح، ومن المحال أن يتنكر للشعر والشعراء برغم ما نفع فيه من أخطاء النفاق والكذب والتملق...

وما إن وصل جرير إلى بيت الخلافة حتى راعه ما رأى، فليس هناك جياد مسرجة والحراس والشرطة لا يزحمون المكان ولا يثيرون فيه الضجة أو الرهبة الجديرة بحاكم كبير، يمتد ملكه ورعاياه فى مشرق الأرض ومغربها، وتغطى جيوشه السهل والجبل، والماء واليابس، ولا أثر لجوقة العازفين، والجوارى لا ينظرون من الشرفات أو عبر النوافذ، ولا تنبعث من هناك الأنغام الحاملة التى تنبئ عن الرفاهية والتعيم.

إن جريراً لا يرى بالبواب سوى الحاجب ولا يبصر بالداخل إلا «مزاحم» -خادم الخليفة- وقليلاً من الرجال والعلماء يتحركون فى هدوء دون تظاهر أو كلفة.

وخطا جرير نحو الباب.

وجاءه صوت الحاجب:

- إلى أين يا أخا الإسلام؟

قال جرير فى اعتداد :

- أنا جرير . . جئت لمدح الخليفة .

قال الحاجب : الخليفة لا يخصص مجلساً للشعراء ولا يقابلهم .

هتف جرير فى دهشة :

- يا عجباً ، هذا أمر ما سمعنا به من قبل ؟

- إن الخليفة الآن ينظر فى مظالم الناس ويدبر شئونهم ، وأظن
أن ذلك أولى من سماعه القصائد والمديح والتهانى .

تمتم جرير وقد أصيب بخيبة أمل قاسية :

- يستطيع عمر أن يفعل الأمرين : ينظر فى المظالم ثم يستمع إلى
الشعراء .

قال الحاجب ساخراً :

- ليس لديك جديد ، كلامكم أيها الشعراء زائع جميل ، لكنكم
تقولونه للجميع ، اليوم وغداً .

- الشعر ضرورة من ضرورات حياتنا والخروج عن هذا العرف
هو الغريب حقاً .

وشعر جرير بالألم يعتصر فؤاده . . إن معنى ذلك أن يشقى
الشعر والشعراء فى أيام العدل والحرية والسلام ، ومعنى ذلك أن

يحمل الشعراء معاولهم ويحرثوا الأرض ويرعوا الأغنام أو يحملوا السلع ويتجروا في الأسواق، ويخرجوا من حياة الجوائز والعطايا التي ألفوها، ولم يفقد جرير الأمل كلية، بل ظل يتردد على مقر الخلافة طوال شهر بأكمله، دون أن يحظى بلقاء عمر، وابتسم له الحظ حين رأى أحد الفقهاء يتجه صوب الباب قاصداً الخليفة وجرير يعلم منزلة الفقهاء لدى عمر، فاندفع جرير إليه، وأخذ يرجوه ويتوسل إليه كي يمهد له السبيل للقاء الخليفة وأمسك جرير بكم الفقيه، وقال منشداً:

يا أيها القارئ المرخي عمامته

هذا زمانك إنى قد مضى زمني

أبلغ خليفتنا إن كنت لاقيه

إنى لدى الباب كالمشدود في قرن

وابتسم الفقيه ووعد «جرير» خيراً ثم ذهب إلى الخليفة يستأذن

له، وقال الفقيه لعمر:

- كان النبي ﷺ يمدحه الشعراء، ويعطيهم الصلوات، فلا

تخرج عما فعله رسول الله يا عمر، وقبل عمر لكنه اشترط على

جرير ألا يقول إلا حقاً، وكان هذا الشرط قاسياً بالنسبة لجرير، إن

الشعر تخليق وخيال وإذا خرج عن ذلك، عن أكاذيبه الخلوة،

وانفعالاته المهيمة وتصوراته الغريبة لن يكون شعراً . . لكن ماذا يفعل جرير؟ هذه هي فرصته الوحيدة لينسى القصائد الطوال التي أعدها من قبل وليبدأ من جديد، إن الخليفة يريد رسالة جديدة للشعر، رسالة الصدق والكرامة الحقيقية وشعر العصر كان شيئاً آخر، فليجرب جرير، وأخيراً وقف جرير أمام عمر، ثم ترم بأبيات قال فيها:

إن الذي بعث النبي محمداً

جعل الخلافة في إمام عادل

والله أنزل في القرآن فريضة

لابن السبيل وللفقير العائل

أني لأرجو منك خيراً عاجلاً

والنفس مولعة بحب العاجل

هز عمر رأسه ثم قال:

- يا جرير: أنت من أبناء المهاجرين أم من أبناء الأنصار، فنعرف لهم حقهم؟ أم من فقراء المسلمين فنأمر صاحب الصدقات أن يملك بما يصل به قومك؟ أم ابن سبيل فلك عندنا ما لأبناء السبيل من زاد ونفقة تبلغك بلادك وركوبة تحملك؟

وطأطأ جرير رأسه فى أسى : إنه أمام رجل لا يريد أن يشتري الكلمات ، ولا تهز أريحته الألفاظ الضخمة أو المدائح الرصينة ، ولا يريد أن يسمع سوى الحقيقة ولا يعطى المال إلا لعمل أو سبب .

وغمغم الخليفة فى صوت لا يكاد يسمع :

- لو أعطينا الناس على ما يقولون من كلمات لمات الفقراء جوعاً ، وغرق الفصحاء والبلغاء ومزخرفو الكلمات فى النعيم ، لن يكون لشعر المديح فى عصرى سوق ، لن أشتري الهراء على حساب التعساء ودموع المساكين ، ويح عمر إن فعل ذلك ، قولوا كلمة حق تنفع الناس وتزيل البؤس عن الخائرين .

وبعد لحظة صمت همس جرير فى صوت خفيض يائس :

- أنا ابن سبيل يا سيدى الخليفة .

- لنعطك ما نعطى لابن السبيل .

وحينما خرج جرير ، تلقفه الشعراء المنتظرون لدى الباب ، وكلهم شوق ولهفة لمعرفة ما فعل جرير مع الخليفة والجائزة التى حصل عليها ، نظر إليهم جرير فى حيرة ثم هز رأسه قائلاً :

- هذا رجل يعطى الفقراء ، ويمنع الشعراء .

ثم تمتم والذهول يعم الحضور :

- أيها الشعراء، إنه لا يتاجر بالكلمة، فانتظروا عهداً آخر،
وخليفة جديداً، أو ابحثوا لكم عن أسلوب جديد.

غير أن جرير كان يشعر في قرارة نفسه، وهو يفكر في كلمات
عمر بن عبد العزيز، أنه أمام سماء ما طاولتها سماء في عصره.



قلب الأميرة

تنهدت الأميرة «جوانا»، ودق قلبها دقات سريعة، وساد وجهها شحوب فائن، ثم التفتت إلى وصيفتها قائلة:

- «زعموا أنه سيحضر الآن لمقابلة أخى الملك «ريتشارد» قلب الأسد . لقد رأيته من قبل ما أروعه من رجل ! يقولون إن اسمه «الملك العادل»، وإنه شقيق صلاح الدين الأيوبي . . وهو الرجل الثانى فى دولته . . أنا لا يهمنى منصبه . . آه يا عزيزتى ! لكم تهزنى رؤيته ! كل مرة يأتى فيها لمفاوضة أخى، أدعو الله من صميم قلبى ألا تنتهى المفاوضات سريعاً، وأن يطول أمدھا . . إن رؤياه تروى ظمأً روحى . . تنسينى مرارة الأيام الجافة العصبية، وهول الحروب الدامية التى لا نهاية لها . .»

همست الوصيفة فى خبث:

- «إن الملك العادل رجل ولا كل الرجال . . الجميع يتحدثون عن بطولاته فى الحرب، وعن رجاحة رأيه فى السياسة والمفاوضات . .»

وتندت عينا الأميرة جوانا بالدموع، وتمتمت في قلتي:

- «منذ أن مات زوجي ملك صقلية وأنا لا أفكر في الرجال.. كنت قد أغلقت قلبي من زمن بعيد.. لم أكن أتصور أن مثل هذا العربي المسلم الذي شارك في تحطيم مملكتنا -نحن الصليبيين- في الشام، وحشد الجنود لأخي ريتشارد.. وبدد قوانا هو وأخوه صلاح الدين في عين جالوت.. لم أكن أتصور أن يخفق قلبي له بالحب.. الحب الذي امتلك على كل مشاعري، وحرمني النوم، وجعلني أعاف الطعام والشراب.. إنها لمأساة يا عزيزتي!!».

ابتسمت الوصيفة قائلة:

- «هكذا الحب يا مولاتي.. إنه لا يعرف شرقاً ولا غرباً، ولا صليبيين ولا مسلمين.. القلب متمرد غريب.. عالم كبير بنا مولاتي.. يسعى إلى رغباته في جنون.. ويتسع للعالم بأسرها.. أتذكرين يا مولاتي؟؟ عندما سلمته رسالتك التي حملتها إليه شفويًا، والتي قلت له فيها: مولاتي الأميرة جوانا تبلغك تحياتها وإعجابها.. عند ذاك يا مولاتي رأيت نظراته الحديدية ترق.. وارتجفت شفته السفلى.. ونظر إليك وأنت تقفين في نافذة القصر المفتوحة في الدور العلوى ثم ابتسم، وقال: بلغنيها تحياتي.. إنني أكن لها كل تقدير وإعزاز، وأعرف عن أدبها وجمالها الكثير..».

والتفتت جوانا إلى وصيفتها وقد سيطرت عليها النشوة، وسرى
الفرح والبهجة في روحها العاشقة :
- «أحق ما تقولين؟؟» .

ضحكت الوصيفة في وقار، وقالت :

- «لقد قلت لك هذا الكلام ألف مرة . .» .

- «قولى مرة أخرى . . أنتعدين أنه يحبني؟؟ لو أمسكت قلب
هذا الرجل العربى لكان هذا عندى أروع من استيلائنا على «بيت
المقدس» . . إن احتلال العالم كله لم يملأ فراغ قلبى يا
عزيزتى . .» .

ودقت الطبول فجأة، ودوى نفير مميز، وهرعت الأميرة «جوانا»
إلى النافذة، وأرسلت نظراتها الوالهة المتلهفة إلى حيث يجتمع
الجنود لاستقبال البطل العربى، وهتفت فى مرح :

- «إنه هو . . انظرى . . ترينه على جواده منتصب القامة فى
كبرياء وشموخ . . ومن خلفه رجاله . . إنه بترجل . . يحيى الرجال
فى شجاعة وثقة . . ويتسم . . يتسم يا مولاتى . . آه . . ها هو
ينظر إلى النافذة، أألوح له بيدى؟؟» .

- «لا يا مولاتى قد يرانا أحد رجال معسكرنا . . وقد يعرف
أخوك الملك ريتشارد بالأمر ولعل هذا يزعجه . .» .

هتفت الوصيفة . .

لكن الأميرة جوانا أخذت تلوح بيدها، غير عابثة برأى وصيفتها، ودون أن تكثرث للوجوه التي اتجهت صوب نافذتها، لم ترَ إلا «الملك العادل»، وهو يرفع وجهه نحوها، ويتسم لها في ود، ويهز رأسه محيياً، وما إن غاب شبحه عنها، حتى تراجعت مرتجفة، وألقت بجسدها المضطرب على المقعد الوثير، وتمتمت:

- «أرى تحقيق الآمال!!»

قالت الوصيفة:

- «لكم أتمنى ذلك!! لكن الأمر متأزم . . فالمسلمون احتلوا بيت المقدس، وأقاموا فيها القلاع والحصون وجنودنا لا يستطيعون النفاذ إليها، وأخوك مولاى الملك ريتشارد يأبى أن يعود إلى إنجلترا أو يقبل الصلح إلا إذا سلم صلاح الدين بيت المقدس . .».

دقت الأميرة الفاتنة على خوان قريب بيدها المتكورة فى ضيق، وقالت:

- «لا بد أن تنتهى هذه الحرب . . لا بد من حل . . إن صلاح الدين رجل نبيل . . لم يغدر بنا قط . . أنسيت معاملته الإنسانية لنا؟؟ ثم فى غير أوقات الحرب . . أيام الهدنات كان رجالنا ورجالهم يسمرون ويتعاملون فى ود وصداقة . . إننى لا أؤمن بهذه

الحرب التى ليس لها ما يبررها . . فأماكن الحج مفتوحة للجميع . .
والمسلمون لا يضطهدوننا ولا يتعرضون لحرية العقيدة
والعبادة . . » .

انحنت الوصيصة فى أدب ، وقالت :

- «لم يكن هذا هو رأيك السابق . . وبالتأكيد ليس هو رأى
مولاي الملك . . » .

- «أيتها الخبيثة !! إن أخى يود الانتهاء من الحرب بسرعة . . إن
المؤامرات والاضطرابات تهدد عرشه فى إنجلترا . . والمسلمون هنا
ليس من السهل التغلب عليهم . . » .

وأردفت الوصيصة قائلة :

- «والحب هو العلاج الوحيد . . » .

- «ماذا؟؟؟» .

- «أعنى . . ماذا أقول . . إن ما أقترحه من حل لا غبار عليه ،
فهو حل حاسم لو استطعنا أن نعبر عن الحقيقة فى صدق . . » .

- «كفى ثرثرة أيتها المأفونة . . يجب أن أعد له رسالة» .

- «ولا تنسى يا مولاتى أن تطلبى من الملك العادل أن يطيل أمد
المفاوضات . . » .

وشردت الأميرة جوانا بضع لحظات، وأخذت تصر على أسنانها، ثم هزت رأسها في تفكير عميق، وعادت تقول:

- «اسمعي . . .»

- «سمعا وطاعة يا مولاتي . . .»

- «أريد أن أقابله . . .»

صرخت الوصيفة:

- «من؟؟؟»

- «الملك العادل»

- «أوه . . . دون ذلك مخاطر وأهوال . . .»

- «أنت تخلقين الأوهام . . .»

- «العيون والجنود وحساسية الأمر . . .»

- «حساسية الأمر؟؟ ماذا تقصدين؟؟»

- «ماذا يقول الفرسان وهم يرون أخت مليكهم، وأرملة ملك

صقلية تطارح فارساً عربياً مسلماً الغرام . . .؟؟»

- «سنلتزم الحذر يا غبية . . .»

- «لكني أخاف أن ينكشف الأمر . . .»

هبت الأميرة «جوانا» واقفة، ودقت الأرض بقدمها فى عصبية،
وهتفت:

- «لكنى أمرك...».

- «سمعاً وطاعة...».

- «سوف أكتب إليه رسالة... لا بد أن أقابله... يجب أن
أعترف... إن حب هذا الرجل يملأ قلبى ولا بد من لقائه مهما كان
الثمن... لا بد...».

ما إن أنهت جوانا رسالتها وسلمتها لوصيفتها، ودبرت معها
الأمر بحيث يحملها إلى العادل أحد الرجال المخلصين، حتى
عزمت على الذهاب إلى أخيها لتعلم آخر تطورات الموقف... كان
ريتشارد قلب الأسد - كما يطلقون عليه - يجلس وحيداً وعلامات
الضيق ترسم على محياه، والاحتقان يبدو فى عينيه، ومن أن
لآخر يزفر فى ملل وحق... وجاءه صوت جوانا وادعاً رقيقاً:

- «أسمع مولاي أن أقطع عليه خلوته...؟».

- «تعالى يا جوانا...».

- «هل وافقوا على الصلح؟؟».

- «لم يزالوا متشبثين بشروطهم بالنسبة لبيت المقدس».

- «والحل!؟».

- «هذا ما أبحث عنه . . يجب أن أعود فوراً إلى إنجلترا . . لقد ساءت الأمور . .» .

- «أعلم ذلك . .» .

- «وبقائى هنا لا جدوى منه . . لم نستطع أن نحقق نصراً حاسماً أو نسترد بيت المقدس . . إن مملكتنا فى الشرق مهددة بالزوال . . وعرشنا بإنجلترا تنوشه الأخطار . .» .

ثم ابتسم ابتسامة واهنة ، وسدد إلى أخته نظرات ذات معنى ، وقال وقد ارتجفت أهدابه :

- «وأمرتنا الجميلة تحلم بالحب . .» .

امتقع وجهها ، وأخذت تعبت فى أناملها ، وتمسح على خصلات شعرها فى ارتباك ، وهتفت :

- «ماذا؟؟» .

- «إنى أعرف كل شىء . .» .

- «لا أفهم ما تقول . .» .

- «لن يجدى الإنكار . . إن ميلك للملك العادل أمر يعرفه الجميع . .» .

- «مولاي» .

- «يا أميرتى الحبيبة .. أنا لا ألومك .. إن سلطان القلب قاهر .. ليس بيدنا فى أغلب الأحيان أن نقهر عواطفنا» .

قالت وقد تندت أهدابها بالدموع :

- «أنت تعلم يا مولاي من تكون جوانا .. وأنا على استعداد لأن أضحي بحياتى من أجل المعركة المقدسة التى تحمل أنت لواءها .. اعتبر ما حدث مجرد نزوة ، وإنى لأعدك وعداً أكيداً ألا أعود لمثلها .. » .

هتف ريتشارد :

- «نزوة؟؟ كلا يا عزيزنى .. لقد فكرت فى ذلك .. إنها إلهام من الله ، لعل هذا هو الحل الذى نبحث عنه .. » .

ذهلت «جوانا» وهى تستمع لكلمات أخيها ، أترأه يسخر منها ، وقالت :

- «أى حل تقصد؟؟» .

- «هذا الشقاء الذى نعيش فيه ونكتوى بناره .. » .

- «لا أفهم .. » .

- «قد تعجبين!! لكن الفكرة التى تسيطر على ذهنى الآن أغرب من الخيال .. إن الصخرة التى تتحطم عليها المفاوضات هى مشكلة بيت المقدس .. المسلمون يرفضون التخلي عنها .. » .

وصمت برهة ثم استطرد:

- «عندك أنت الحل يا جوانا . .» .

- «عندى أنا؟؟» .

- «لو تزوجت من الملك العادل، فلانى سأؤيد هذا الزواج من كل قلبى . . على أن يتولى العادل ملكاً على بيت المقدس، وأن تشاركه الحكم سنؤمن طريق الحج، وتوضع كنيسة القيامة تحت حمايتنا . . سنحكم بيت المقدس حكماً مزدوجاً إذا ما تزوجتما . . وأنا على استعداد لأن أعرض الأمر على مندوب صلاح الدين إذا لم يكن لديك مانع . .» .

كان الأمر شديد الغرابة بالنسبة لها، لم تكن تحلم بهذا التطور السريع، وفكرت بسرعة، أترأى يبادلها حباً بحب، لو كان الأمر كذلك، فستحقق المنى، وتترعرع الآمال الحلوة فى قلبها، وتعيش فى كنف الفارس العربى العظيم الذى تعلق به قلبها، سيسود السلام والحب . . واستطاعت «جوانا» بعد أيام قليلة أن تلتقى بالفارس العربى الملك العادل، وكان هدفها من هذا اللقاء التأكد من حبه لها، فما كانت لترضى أن تقبل حباً من طرف واحد، وملأت السعادة أرجاء نفسها عندما تيقنت أنه يبادلها حباً بحب، وأن قلبه الكبير الشجاع يفسح لها مكاناً رحباً . . وباتت ليلتها تحلم أحلاماً سعيدة رائعة . . لكن سعادتها كانت مشوبة بشيء من القلق

والخوف والغموض . . إن تتحقق آمالها على هذه الصورة الرائعة السريعة تورثها الشك . . وخاصة بعد أن عرض ريتشارد الأمر رسمياً على الملك العادل، ووافق عليه، ثم أيده صلاح الدين، ولم يبقَ إلا التنفيذ . .

وسرعان ما انتشر النبأ في المعسكر الصليبي . . كثير من الجنود فرحوا باقتراب السلام وعقد الصلح . . لكن رجال الكنيسة كسروا عن أنيابهم . . وفرسان الداوية المتعصبون امتشقوا السلاح، وشهروا سيوفهم في غضب . . وأفتى الآباء بأنه زواج حرام، وأن نصوص المسيحية ترفض مثل هذا الزواج إلا إذا كان الزوج المقترح مسيحياً . . وحضر كبير من القساوسة وطلب مقابلة جوانا . .

- «إنك يا ابنتي الأميرة ترتكبين خطيئة كبرى . .»

- «كيف؟؟»

- «تنسين أنك أرملة ملك سابق، وأخت ملك، ومسيحية صالحة . . أنتم القدوة في الحفاظ على الدين، وعلى التقاليد الصليبية العريقة . . نحن يا ابنتي على أبواب فتنة كبرى لا يعلم إلا الله مداها . .»

قالت جوانا في دهشة:

« مثل هذه الأمور لم ترد على خاطري يا أبتاه . . لقد اعتقدت

أن مثل هذا الزواج سيحقق السلام والحب، ويحد من إراقة الدماء . . لقد شعرت أننى بذلك أودى واجباً مقدساً» .

قال فى جفاف :

- «لكنه مخالفة صريحة لنصوص شريعتنا . . خطيئة كبرى . .
ألا تعلمين؟؟ لا تمسح هذا الخطأ توبة . . عقوبته الجحيم الأبدى . .
لم أذهب لأخيك لأنه لا يكثرث كثيراً لآراء رجال الدين . . أنت
وحبك تستطيعين حسم الموقف . .» .

قالت والدموع على خديها :

- «كيف؟؟» .

- «ترفضين هذا الزواج . .» .

- «هذه قسوة . .» .

- «لكنها إرادة الله . .» .

- «مستحيل يا أبتاه . . إن الله لا يرضى الظلم . . والمسلمون
يبيحون الزواج من المسيحيات فلماذا نحرمة نحن؟؟» .

- «لكل شريعته . . ألسنت يا ابنتى الأميرة إحدى المسيحيات
المؤمنات؟؟» .

- «إننى مؤمنة . .» .

- «والإيمان قرين العمل . . .»

- «سأقتل حبي . . سأحاول أن أنسى . . إنه شيء رهيب . .»

ثم ألقت برأسها على صدر «الأب» وأخذت تبكي، وتقول:

- «اغفر لى يا أبتاه . . لقد أحبيته على الرغم منى . . لم يكن لى

فى الأمر حيلة . . ليتنى لم أرَ العادل . . ليتنى . . لماذا هذا العذاب يا أبتاه؟؟»

ربت على كتفها فى حنان، وقال:

- «خير لنا أن نخسر المعركة من أن نخالف نصوص الدين».

- «لكن الجميع يا أبتاه يحلمون بالحب والسلام . . وأصبح من

العسير هزيمة صلاح الدين . .»

- «لقد استقر رأى على أن نترك بيت المقدس لصلاح الدين

على أن يترك لنا الأماكن المقدسة وكنيسة القيامة بالذات فى يد

المدنيين . . وستعودين يا جوانا إلى إنجلترا معززة مكرمة لتزوجى

واحداً من أبناء دينك . .»

- «سأعود حزينة يا أبتاه . . إنى أعترف . . ولن أتزوج . .

سأعيش راهبة . . آه . . من مبلغ عنى السلام إلى الرجل العظيم

الذى سكن قلبى إلى الأبد . .»

هَمَّهُمَ الْأَبَ وَهُوَ يودعها :

- « لا تحزننى . . لقد رضى عنك الله . . » .

لكنها لم تسمع عبارته الأخيرة . .

كانت خواطرها شاردة إلى بعيد . . إلى فارس أحلامها الشجاع
النبيل ، ذلك الفارس الذى روى روحها الظامئة بأعذب رحيق فى
الحياة .



المعطف الأسود

كانت المدرسة الابتدائية التي ندرس فيها بعيدة عن قريتنا حوالي خمسة كيلو مترات ، وعلى الرغم من أنها مسافة كبيرة نوعاً ما ، إلا أننا كنا نذهب إلى تلك المدرسة مشياً على الأقدام ذهاباً وإياباً ، وطوال الطريق كنا نتسابق ونغنى وتضحك سواء أكنّا في البرد القارص أم الحر اللافتح .

وكانت هناك ظاهرة لافتة للنظر ، إنه الطالب «محمد الحداد» . . . إننا نراه يمضى فى طريقه هادئاً صامتاً ، لا يشاركنا فى ترديد الأناشيد المدرسية ، أو الشرثرة حول الموضوعات الكثيرة التى نتحدث عنها ، إن محمداً يمضى ساهماً شاردًا ، ينظر إلى الأفق الأزرق ، ثم إلى الحقول الخضراء ، وكأنه يناجيها وتناجيه . . . ومسحة من الحزن العميق ترشح من ملامحه الدقيقة ، وكان ضئيل الحجم ، متقد الذكاء ، ترتيبه الأول دائماً وظل محافظاً على تفوقه إلى أن دخل كلية الطب . وكان يسبقنا بعامين دراسيين . . . وقريته

تبعد عن قريتنا ما يقرب من كيلو متر ونصف، إنه يمشى إذن ثلاثة عشر كيلو متراً يومياً . .

وحتى في كلية الطب بقى محمد الحداد منطوياً على نفسه بعيداً عن كل ألوان الصراع في ذلك الوقت . . أى فى الأربعينيات من هذا القرن . . حيث كان الصخب السياسى على أشده، والحرب العظمى تهز العالم هزاً والقرارات الدولية تغير من خريطة بلدان كثيرة وحركات التحرير تشتغل فى كل مكان . . وكان يلزم نفسه بنظام صارم فى العمل والأكل والنوم، ولا يسمح لأحد بأن يخرج من الدائرة التى رسمها لنفسه . .

سألته مرة عن أبيه فقال باقتضاب: «نعم . . إنه لا يزورنى فى العاصمة ولن يزورنى أبداً . . لقد مات منذ سنوات رحمه الله . .» .

وكان الحزن الشديد يغلف كلماته الموجزة إذا ما جاء ذكر أبيه . . وفى أكثر المرات كان يهرب بلباقة من الحديث عن أبيه، مما أثار فى نفسى الشكوك، وعندما كنت أجلس معه فى المطعم وأذكر شيئاً عن أبى أرى وجهه يمتعض، ويلتهم ما تبقى من طعامه بسرعة وينصرف، ولعل هذا الغموض فى تصرفاته جعلنى ألح فى معرفة الكثير عن أبيه، لكنه كان يتركنى ليؤدى الصلاة التى يواظب عليها، أو يلجأ إلى كتاب يتصفحه، أو يذهب إلى حمام لينفسل منديلاً . . دائماً يهرب .

وسألته مراراً: «لماذا لا تنسب إلى أى حزب سياسى؟»، فكان
يرد قائلاً:

- «أنا لا أؤمن بتلك الأحزاب، الوسيلة الوحيدة التى يمكن أن
أخدم بها وطنى هى أن أجد فى طلب العلم، التقدم العلمى هو
الكفيل بحل كل مشاكلنا...».

لكنى أعود وأقول له:

- «الأرض محتلة، وكثيراً من الطلبة ينضمون إلى معسكرات
الفدائيين، والمستعمرون لا يفهمون إلا أسلوب القوة...».

ويهز محمد رأسه قائلاً:

- «العلم قوة... والأحزاب السياسية تتاجر بدماء الشباب... أنا
لا أنكر أهمية الكفاح المسلح... لكنى مقتنع أن مكانى أنا شخصياً
فى المعركة هنا... فى الكلية ولكل أسلوبه فى العمل الوطنى...».

نظرت إليه فى دهشة، وكانت طريقته تخالف طريقتى فى
التفكير، وكانت حماسى لما أؤمن به، تتناقض مع هدوئه ومنطقه
البارد، وتتناقض أيضاً مع عمره، فهو فى فترة الشباب المتوهج،
لكنى أراه وكأنه كهل قد تخطى الخمسين من عمره... وقلت
مستفسراً:

- «مَنْ علمك هذا المنطق؟» .

شرد إلى بعيد، وقال :

- «الأيام . . وفي قرينتنا مثل يقول : من لم يعلمه أبوه وأمه تعلمه الأيام والليالي . . أنا لست جباناً، ولكن لكل طريقته»، ورجحت أن أباه لا شك رجل طيب مسالم، رباه على التسامح والعبادة والعمل الجاد، ونزع من قلبه نوازع التمرد والثورة والاندفاع . . وكان يردد دائماً : «أنا أسابق الزمن . . أريد أن أنهى دراستي بأقصى سرعة ممكنة» إنه يعرف طريقه جيداً، ويسير فيه دون أن يلتفت إلى وراء . . هذا ما كان يبدو لى .

أمر آخر لفت نظري، وهو أن محمد الحداد لم يكن يقيم أية علاقات مع أهل بلده أو أقربائه، وكثيراً ما كنت أسأله عن السبب فيعلل ذلك برغبته في العزلة والانطواء حتى يتفرغ لدراسته، وكلما مرت الأيام أيقنت أن محمداً يخفى وراءه أمراً ذا بال، إنه نمط فريد من الزملاء، حتى في علاقاته مع زميلات الدراسة، كان يعاملهن بجفاف واقتضاب فإذا سألته إحداهن عن محاضرة من المحاضرات، قدم إليها كراسته صامتاً وإذا حيتة فتاة منهن هز رأسه محيياً وانصرف معجلاً، وإذا جلست إلى جواره أخرى، تسلل في هدوء، وبحث له عن مكان آخر، فاجأته بقولي ذات مرة :

- «ألم يتعلق قلبك بحب فتاة؟» .

هتف فى ضيق :

- «هذا كلام فارغ . . .»

- «ألن تتزوج إذن؟ . . .»

- «من قال ذلك؟؟ بالطبع لابد أن أتزوج . . لكن الوقت لم

يحن بعد . . .»

قلت له :

- «وكيف ستتزوج بلا حب؟؟»

قال فى يقين :

- «عندما يحن الزواج سيأتى معى الحب» .

واقتربت منه ولمست كتفه قائلاً :

- «لكن قلوبنا تخفق على الرغم منا . . حتى القطة تفعل

ذلك . . .»

ابتسم ابتسامة خفيفة ، وقال :

- «والكلاب أيضاً . . لكنى أعرف كيف أتحكم فى مشاعرى» .

قلت ساخراً :

- «أنت إنسان خارق . . .»

ورأيته ينظر عبر النافذة . . حيث العمارات العالية المتزاحمة ،
والمآذن الشامخة ، وأدخنة المصانع التي تزفر فى جوف السماء
غاضبة ، ثم قال :

- «كان أبى رحمه الله يتفاهم دائماً بيده . . وأنا لى أسلوب
مغاير تماماً ، إننى أتجاهل الحماقات ، وأتخذ من عقلى وسيلة لحل
معضلات الحياة . . الحياة أقوى منى ومنك ومن أبى . . وأية قوة
مهما كانت . . مصيرها إلى التضاؤل والضمور . . تلك سنة
الوجود . . » .

قلت ضاحكاً :

- «أنا أتحدث عن الحب . . » .

قال :

- «وأنا أتحدث عن الحياة . . » .

همست :

- «يا صديقى . . الحياة بلا حب صحراء قاحلة . . » .

استند على مكتبته الخشبي الصغير ، وقال :

- «الحب فى أذهانكم مرتبط بالجنس ، والحياة فيها ألوان عدة
من الحب . . » ، ودق جرس ساعة الحائط ، فرأيته ينتبه كمن يفيق
من غفوة طارئة ، ثم هتف :

- «لقد جاء وقت العمل . . تستطيع أن تنصرف . .» .

قلت مازحاً:

- «أتطردني؟؟» .

قال في خجل:

- «إننى مرتبط بعمل لا بد أن أنجزه فى الوقت المحدد . .» .

حينما عدت إلى مسكنى كان أبى فى انتظارى، لقد عاد من القرية، حاملاً معه أطايب الطعام، وتحيات الأهل والأقارب والمبلغ الشهري لمصروفاتى، عندما رأيته قبلت يده كالعادة، وفهمت أنه ينتظرنى طويلاً، وعندما تساءل عن المكان الذى كنت فيه، أخبرته عن صديقى «محمد الحداد»، وأخذت أذكر له بعض المعلومات عنه، وعن أسلوبه فى الحياة، وعن قريته القريبة من قريتنا، وهز أبى رأسه قائلاً:

- «أوه . . تذكرت . . إننى أعرف أباه . . حسن الحداد . .» .

وهزتنى المفاجأة، هذا ما كنت أتمناه، إننى أريد أن أعرف شيئاً كافياً عن صديقى هذا الذى حيرنى أمره، ووجدت أبى ينظر إلى فى حيرة، أدركت أنه يعرف الكثير عن حسن الحداد، لكنه قال أمام إلحاحى:

- «لا تفكر فى هذا الأمر، وما شأنك أنت بأبيه؟؟ يكفى أن

محمداً شاب طيب مجتهد . . لكم تمنيت أن تكون مثله ، وأن تبتعد
عن صراعات هذا الزمان الأعمى . . الناس في عصرنا قد أصيبوا
بالخبال والجنون . . وأمس غير اليوم . . وأنا دائماً أحذرك من
الخوض في أمور السياسة . . » .

لم أكن أميل كثيراً لوجهة نظر أبي فنحن جميعاً مسئولون عما
يجرى في العالم وفي بلادنا عقب الحرب العظمى ، ومع ذلك فقد
كان اهتمامي الأكبر مركزاً على معرفة والد صديقي . . ولم يستطع
أبي أن يفلت من حصاري بالأسئلة وأخيراً قال :

- « كان حسن رحمه الله وغفر له متهوراً . . لقد بهرته لعبة
الموت . . حمل سلاحه وانطلق في أنحاء منطقتنا يقتل ويدمر . .
لقد غزا قلوب الناس بالرعب . . كان وسيماً لطيفاً . . لكنه سريع
الغضب ، حاد الذكاء ، يحسم الأمور بطريقته الخاصة . . لا يثق في
شيء قدر ثقته بسلاحه . . ويبدو أن التجربة القصيرة الناقصة قد
دعمت إيمانه بالقوة . . أصبح مطاع الأمر . . لم يجد من يقول له :
« لا » وكان الناس يشنون في وجهه ، ويفسحون له صدر المجلس ،
ويؤمنون على كل كلمة يقولها . . حتى عمدة القرية كان يخشى
بأسه ، ويلبى طلباته ، ويخاف أن يبلغ السلطات عن جرائمه ،
فكانت كلها تقيد « ضد مجهول » .

وصمت أبي برهة ثم قال :

- «دعنا من هذا الأمر . . يكفى ما قلته . . إنه صديقك الحميم الآن» .

أمسكت بيد أبى متوسلاً:

- «أؤكد لك يا أبى أن هذا لن يؤثر على علاقتى به . .» .

قال أبى :

- «المشكلة ليست فى السلاح الذى كان يلعب به اللعبة الخطرة . . المشكلة هنا . .» .

وأشار أبى إلى رأسه ، ثم استطرد :

- «إن الأفكار التى تعشش فى رءوسنا هى التى تحدد لنا الهدف والوسيلة ، وحسن كان فى بدء حياته رجلاً نظيفاً طيب القلب شجاعاً صريحاً ، وكان يعمل لدى أحد ملاك الإقطاعيات الكبيرة . . وتعرف أنت ألوان الصراعات السياسية حيث الانتخابات ، والتسابق فى تنمية الثراء ، والخلافات الخطيرة بين الأسر الكبيرة ، ووقع حسن المسكين فريسة فى يد الكبار . . فحاولوا رشوته . . امتنع . . فطردوه من عمله . . عندئذ ثار وصرخ «هذا ظلم . . ظلم ولن أسكت» لم يجد من ينصفه . . حاول أن يصلح العلاقة التى فسدت ففشل . . ويوماً ما كان يسير فى الطريق العام . . فوجئ ببصقة على وجهه . . إنها رسالة سخرية واستهزاء

بعث بها إليه صاحب الإقطاعية الكبيرة، ردّاً على ما سمعه عن حسن من أنه يهدد ويتوعد . . ليلتها لم ينم حسن . . باع بقرته وحماره واشترى «بندقية»، وكان لابد أن يدفع صاحب البصقة حياته ثمناً لخطيئته . . وهاجت القرية وماجت . . ولم يكتف حسن بهذا . . بل ذهب إلى الرجل الكبير نفسه . . وقضى عليه . . وسالت دماء ودماء . . وأصبح حس الحداد هو الرعب بعينه . . كان صديقك محمد لم يزل طفلاً في الخامسة من عمره . . وكان الناس يدلّونه . . فهو ابن حسن . . الرجل المرهوب الجانب . . .

وتنهّد أبى في حسرة، وقال :

- «والنهاية دائماً معروفة . . خرج حسن ذات صباح . . كان في انتظار ناظر العزبة الجديد الذى تجرأ عليه وتناوله ببعض كلمات التهديد والتحذير . . اعتبر حسن ذلك إهانة كبيرة . . ووصل الناظر . . ووجه إليه حسن بندقيته . . لكأنما أصيب حارس الناظر المسلح بالشلل عندما رأى حسن . . أطلق حسن غدارته . . لكن الرصاصة لم تخرج . . هكذا أراد الله . . هتف الناظر بحارسه . . اضرب يا ولد . . اضرب فى المليون على مسئوليتى، لم يكن حسن يتوقع أن يجرؤ الحارس على فعلها . . فأخذ حسن يحاول إصلاح سلاحه، بينما أمسك الحارس غدارته بيد مرتعشة، وصوبها صوب حسن . . فأصابته منه مقتلاً . . وخرج الناس من كل صوب ليروا

الرعب المجسد، وقد تحول إلى جثة هامدة . . ورأوا زوجه وولده
محمداً يكيان عند رأسه .

هززت رأسي، وقد أفلتت دمعة من عيني على الرغم مني،
ونمتت:

- «الآن . . فهمت . .» .

وقال أبي:

- «بالله عليك يا ولدي لا تجعل صديقك يعرف أنك قد ألمت
بالحقيقة . .» .



محمد الآن أستاذ للأنف والأذن والحنجرة، وحوله فرقة من
الأطباء حديثي التخرج وهيئة التمريض، إنه يقف بينهم في معطفه
الأبيض الذي يشع صفاء وبهاء وثقة، ويقول الملاحظات فيسجلها
الطلبة، ويطلب شيئاً فيهرع الأطباء والمرضات لتنفيذ ما أراد،
والصحفيون يجرون خلفه لكي يأخذوا عنه الأحاديث الطبية،
وبراعته في الجراحة أصبحت على كل لسان، وفي مجلس الكلية له
رأي مسموع، لكنه لا يفكر في شيء سوى عمله وأسرته
الصغيرة . . إن أمه تعيش معه منذ سنوات في المدينة بشقة في حي
راق، وقد تزوج من أسرة عريقة، وهو لا يؤمن بالاختلاط، ولذا

فأنا لم أرَ زوجته حتى الآن، أما طفلاه فهما في إحدى المدارس الخاصة، وعندما يذهب محمد إلى قريته -ونادراً ما يذهب- يحتشد الناس من حوله في حب وتقدير، ويحيطونه بكل ألوان المجاملات، وإلى جوار بيته الجديد المبني على الطراز الحديث، تجلس امرأة عجوز قد بلغت الثمانين . . دائماً تردد:

- «مبجحان الله . . قادر على كل شيء . .» .



العدالة

قلت لهم: «أنا لا أعرف شيئاً عن السلاح»، قلتها فى صدق وإخلاص وإصرار، نبرأتى ودموعى كلها توحى بالثقة، أقسم بالله العظيم، لكن نظراتهم الغاضبة المسددة إلىّ، والسيّاط التى تتطوح فى أيديهم، والوجوه المحتقنة العابسة، كانت تعنى أنهم لا يصدقون.. ماذا أفعل؟؟ وانهاالت السيّاط مرة أخرى على جسدى العارى.. إن جسدى حساس أشعر بالآلام رهيبة، قوة احتمالى محدودة.. وحينما انتزعوا أحد أظافرى خيل أن ما حولى كله ظلام فى ظلام.. الآلام البشعة أفقدتنى الوعى.. وأفقت فرأيتهم يأتون ويتزعون ظفراً آخر.. الرجل الذى يفعل ذلك يؤدى مهمته ببساطة وقوة أعصاب غريبة.. لا تختلج فى وجهه عضلة واحدة.. هتفت مستغيثاً: «حرام يا ناس»، وابتسم الشيطان فى سخرية: «نحن نعرف الحلال والحرام أكثر منك.. أنت الذى تعذب نفسك.. وسنستمر حتى الموت.. الموت!! عندئذ تحملك

سيارة قدرة، وتلقى بك في حفرة نائية في أعماق الصحراء.. دون أن يدري بك أحد.. هذا إذا لم نخبرنا أين السلاح..».

لم تكن عيني قد ذاقت النوم منذ ثلاث ليال.. وأبى يجلس الآن أمام المنزل يدخن سيجارة، في ظل الشجرة الكبيرة، والقلق يعمر قلبه، ويرعش يديه.. أنا أعرفه.. وأمى لا شك تجلس باكية في الحجرة الداخلية، مرتكزة بخدها على قبضتها.. وأختي الصغيرة «هناء» تناغى عروستها الجميلة المصنوعة من البلاستيك.. وقربتنا الفقيرة الوداعة تؤدى واجبها في صمت وصبر منذ آلاف السنين.. وأنا هنا في مواجهة الجلال.. ولا أعرف شيئاً عن السلاح.. وكل جريمتي أنى صديق قديم، منذ أيام الدراسة، لأحد المتهمين.. واسمه «عبد الله»..

ومرت ساعات من العذاب والشقاء والتعاسة.. كأنها دهر.. والناس يتحدثون عن الصمود والشجاعة والتضحية على صفحات الكتب.. وفوق المنابر.. وفي المحافل.. أتذكر كل ذلك الآن.. وأنظر إلى نفسي.. ماذا أرى؟؟ كومة من اليأس والخطام والاضطراب الفكرى.. رفعت بصرى إلى السماء.. آه «لا سماء» لأن السقف أسود كثيب، والنافذة مغلقة.. والباب ذو القضبان الحديدية.. وضعوا فوقه ستارة كالحة.. لا يمكن أن أكون حياً.. هذا ما بدالى.. هل أصابنى الموت وأنا الآن أعانى عذاب القبر..

الذين لم يجربوا هذه المعاناة سيضحكون . . لأنهم يقرءون كثيراً
عن حضارة القرن العشرين، والتقدم، ورفاهية الإنسان . . أنا
بالأمس كنت مثلهم . . لكن التجربة صفعتني صفقة هائلة، أفقت
من وقعها على الوجه الثانى لحضارة الإنسان . . الوجه الحقيقى . .
لماذا أخذتكم؟؟ القسيم الكبرى التى كنت أؤمن بها تنزوى فى
قلبى . . تموت . . لو نجوت . . آه . . سأعيش لنفسى . . لن أصادق
أحدًا . . نفسى . . نفسى . . السوط وانتزاع الأظافر وكلمات الجلاد
الساخرة الجارحة حطمت فى روحى كل ما تعلمته وتربيت عليه
طوال ثلاثين عامًا . . ثلاثة أيام مسحت من قلبى كل السطور
المضيئة . . وشعرت أنى عاجز تمامًا عن أن أحتمل أى مزيد من
العقاب . . فقد انهارت كل القوى المعنوية والمادية التى تسند كيانى،
وتعتمد عليها إنسانيتى . . أصبحت أضعف من حيوان، وأضيع من
الجلاد . . وحينما اقترب الشيطان ليتزع الظفر السادس من يدي
اليسرى هتفت ضارعا:

- «ارحمنى . .» .

قال فى رقة لم أعهد لها فيه:

- «لماذا يا ولدى لا تخلص نفسك؟؟ إن السلاح عند «عبد الله»
وتحرياتنا تؤكد ذلك . . وأنت الوحيد الذى يستطيع أن يشهد
بذلك . .» .

قلت ودموعى تسبق كلماتى :

- «أنا لا أعرف» . .

اكفهر وجهه ، وجذب يدى وانتزع الظفر السادس والسابع . .
الآلام البشعة . . الدماء . . الخوف من الموت . . اليأس . . ودار
رأسى ، اختلطت المرثيات ، ذئاب . . وثعالب . . غابة هائلة من
الروحوش . . أنياب دامية . . مخالب . . أشواك . . ظلام مرعب . .
ونتمت يبضع كلمات :

- «السلاح عند عبد الله . .» .

وامتلاً المكان بالضحكات ، حاولت أن أتكلم فاحتبست
الكلمات فى حلقى ، ثم تكلمت بصعوبة ، فضلت الكلمات
طريقها وسط الضجيج والسخریات والضحكات . . وكلمات
كثيرة يتداولها الجلادون : «أنا أعرف هذا الصنف من الناس . . لا
يعترفون إلا وهم على حافة الموت» . . «دموعهم كاذبة دائماً ،
وقسمهم حنث كله ، حيوانات . .» . . «يدأى كلنا من ضربهم وهم
صابرون . . أى بشر هؤلاء؟!» .

حينما عادوا بى إلى حجرتى ارتميت على «البرش» ولم أعد
أشعر بنفسى ، كنت جائعاً للنوم . . ولست أدرى هل طال بى
الوقت أم قصر . . لقد صحوت على صراخ وضراعات . . هذا
صوت «عبد الله» إننى أميزه جيداً . . دق قلبى فى رعب . . انتصبت

واقفًا، وجسدى كله يرتجف، لم أعد أشعر بأية آلام . . وبقيت
مسمراً بضع دقائق . . ودخل على السجنان، وقال :
- «أتريد شيئاً؟؟» .

ولما لم أجب، هز رأسه فى أسف، وقال :
- «مسكين عبد الله . . إنه يرفض الاعتراف . . أما أنت فقد
نجوت بنفسك أنت عاقل . . إما أن يعترف عبد الله أو يموت . .» .
صرخت فى جنون :

- «لا . . عبد الله مظلوم» .

- «أنت اعترفت عليه . .» .

- «لم أعترف . .» .

- «لقد وقعت بيدك على محضر التحقيق . .» .

نظرت إلى يدي المرتجفة، وأظافرى المنزوعة، ثم رفعت إلى
السجان وجهاً حزيناً :

- «أنا جلاد مثلكم . . أنا كاذب . . كاذب . . كاذب . .» .

ودوت على وجهى صفة قوية، نظرت إلى السجنان الغاضب،
وعينيه الشرستين، وشفثيه المزمومتين، وسمعتة يقول :
- «أتهزءون بنا؟!» .

وشهقت باكيًا، واضعاً يدي على وجهي، وأخذت أقول:

- «عبد الله مظلوم... لم أقل ما قلت إلا لأخلص نفسي من الآلام...».

قال ساخرًا:

- «وتزعم أنك بطل؟!».

- «لم أقل ذلك... أنا ضحية... لم أسئ لأحد... طوال حياتي لم أرتكب جرماً... الله يعلم... والناس في قريتنا يعرفون...».

وصاح السجان، وهو يركلني بعنف في بطني:

- «ملعون أبوك... وأبو بلدك».

برغم الآلام التي انداحت كالدوامات المتتابعة في بطني إلا أنني قلت:

- «أرجوك... خذني إلى الضابط... أريد أن أقول له الحقيقة...».

- «لم نعد بحاجة إليك، أخذنا اعترافك وتوقيعك... ألم تقرأ ما كتبه الصحف اليوم؟؟ انظر... هذه صورتك وصورة عبد الله... واعترافاتك الخطية... ماذا بعد ذلك؟؟ أتريد أن نخرجنا لدى المسؤولين ولدى الناس؟؟».

وجذب وراءه الباب وانصرف...

وساد صمت رهيب . . أخذت أدق رأسى وقبضتى فى الجدار
 الصلب العتيد . . كل شىء ليس فيه أدنى حنان أو مرونة . .
 الجدران . . الباب الحديدى . . نظرات الجلادين . . الوجوه
 الجامدة . . عالم غريب لا يعرف الحب . . لا يعرف الله . . ومن
 ثقب صغير فى الستارة رأيت طبيب السجن يهرول . . ماذا جرى؟؟
 لابد أن أحد الجلادين قد أصابه الإرهاق كما يحدث فى كثير من
 الأحيان . . لكننى لا أسمع صرخات عبد الله . . وعاد الطبيب من
 حيث أتى بعد فترة . . ثم رأيت جسداً ملفوفاً فى «بطانية» جرباء
 مهترئة . . موضوعاً على منضدة ذات عجلات صغيرة . .
 وللعجلات لحن حزين كالأنين . . واقترب أربعة من الجلادين من
 باب زنزانتى الخافتة الضوء . .

قال واحد منهم:

- «عبد الله لم يعترف . .» .

وقال الثانى: «أين السلاح؟؟» .

قلت فى ذهول:

- «ليس للسلاح وجود إلا فى أذهانكم . .» .

- «يا ابن الـ . . ولماذا اعترفت عليه؟؟» .

ضحكت فى هستيرية:

- «كتم تريدون ذلك .. وتصرفت دون وعي ..» .

قال أحدهم وهو يغمز بإحدى عينيه :

- «لقد مات ..» .

اندفعت كالمجنون أضرب في كل اتجاه .. الغابة ..

والوحوش .. والأشداق والأنياب الملونة بالدم .. كنت أضرب ..

وفي لحظات .. أمسكوا بي .. وقال سيدهم :

- «لم تكن نريد غير الحق ..» .

نظرت إلى الشياطين .. وآلة نزع الأظافر الجهنمية ..

وتمتت :

- «الحق؟؟» .

وقال سيدهم دون اكتراث :

- «الظاهر لا فيه سلاح ولا زفت ..» .

ولم أعد أذكر غير ذلك ..

ملحوظة: سجلت هذه السطور بمستشفى الأمراض العقلية ..

في مدينة ما .. في دولة ما .. في العصر الحديث .. القرن

العشرين .. عصر العلم والمدنية .



الحلم الجميل

كان خفيف الظل، وديع الروح على الرغم من دماسته التي تبدو لأول وهلة، طريقته في الكلام، وأسلوبه في المشي والحركة، واستقباله لأصدقائه ومعارفه، كلها تبعث على الانشراح والبهجة، ولهذا بدت انحناء ظهره الخفيفة، والحول الذي في عينيه، وعنقه المسرف في الطول، وعوده القصير، بدت وكأنها معالم جاذبية وخفة . .

وكانت أبرز صفات «عبد النافع» هي أنه يقاد ولا يقود، مجرد جندي بسيط متواضع، سريع الاقتناع بما يؤمن أنه حق، ولا يحب الدخول في الجدل العقيم، والمعارك الكلامية التي لا يؤمن بجودها . . ولعل زملاءه في السجن، كانوا يتعجبون . . لماذا أقحم عبد النافع نفسه في تلك المعارك السياسية الطاحنة في أوائل عام ١٩٥١ وأواخر ١٩٥٢؟؟ . .

مثله لا يبدو عليه - لأول وهلة - أنه ممن يطلق عليهم اسم الوطنيين . . .

كانوا يطلقون عليه «الدكتور عبد النافع»؛ لأنه طالب بكلية الطب البيطرى، وكثيراً ما استغله زملاؤه فى خداع السجناء والسخرية منهم، وخاصة القساة منهم، ولا يستطيع أن ينسى النزلاء يوم أن جاء الباشسجان «متولى» المعروف بصلفه وخشونته، واشتكى للدكتور عبد النافع من ألم فى حلقه.. . ابتسم عبد النافع فى هدوء، ثم أمسك بفك متولى الضخم، حتى لامست أصابعه شاربته المقتول المخيف، وتناول عبد النافع، ثم مد عنقه الطويل، وصاح فى متولى:

- «افتح فمك..».

وفتح متولى فمه، فبدت أسنانه الصلبة.. .

وعاد عبد النافع يقول.. .

- «قل نع...».

قالها السجان فى صوت خفيض، فهتف عبد النافع:

- «عيب يا رجل.. . ارفع صوتك حتى أستطيع رؤية اللوز.. .

قل نع...ع...ع...ع».

وارتفع صوت «متولى» عالياً، وقد تجمعنا حوله، ونحن نحاول

جاهدين أن نكتم ضحكاتنا، وأخذ يردد:

- «نع...ع...ع...ع».

كان صوته ينبعث كصوت ثور عجوز، لم نستطع السكوت أكثر من ذلك فانفجرنا ضاحكين، وقد فاضت عيوننا من شدة الانفعال، وصاح متولى:

- «لماذا تضحكون»:

رد عبد النافع بهدوء عجيب:

- «لا تؤاخذنى يا باشسجان . . شغلى دائماً مع البهائم . .».

وانفجرت موجة عاتية من الضحك أذهلت السجان، بينما أقبل سجان آخر، وقال لمتولى:

- عملوها فيك . . الدكتور عبد النافع طبيب بيطرى . . فاريد وجه متولى وهدد . .

- «أتسخر منى؟؟».

- «أبدًا . . لكننى لا أتأخر عن أية خدمة تطلب منى . . وأطباء الحنجرة البشريون يفعلون ذلك الفرق بيننا فى كلمة واحدة . . يقولون لمريضهم قل: أه . . وأنا أقول لبهائى قولوا: نع . . .».

وهكذا كانت نواذر عبد النافع لا أول لها ولا آخر، كل شىء فيه يضحكننا، شىء واحد كان يلتزم فيه الصمت، ويصغى بكل جوارحه، وذلك عندما نتكلم عن القضية الوطنية والأحزاب والملك والإنجليز فى القتال ومأساة فلسطين . . ولا شك أن بعضنا كان ضيق الأفق، يركز اتهاماته فى بعض الشخصيات السياسية المنحرفة،

ويفكر فى إصلاحات جزئية تافهة، أما عبد النافع فقد كان يقول ببساطة: «يجب هدم هذا النظام من أساسه وإقامة حياة جديدة. . كل شىء فاسد. . أنا لا أفهم من كلامكم سوى هذا. .».

والغريب أن والد عبد النافع كان من ذوى الرتب العالية. . موظف درجة أولى، وكنا نستلقى على ظهورنا من الضحك عندما يرد ذكر أبيه، كان عبد النافع يقول:

- «فى السجن أنا مستريح. . لشد ما أخاف من يوم الإفراج عن المعتقلين!! أتدرون لماذا؟؟ لأنى لا أعرف كيف أستقبل أبى. . عندما يرانى فلسوف ينهال على صفعاً وركلاً. . كان يقول لى: أنت حمار. . أنت لا تفهم إلا فى تشريح الثور فما دخلك فى السياسة. . والغريب أن الكلية ألغت الثور من المقرر. . والطلبة الآن يشرحون الحصان. . وأبى مُصر على أنى ثور. .».

ثم ينسى عبد النافع الثور والحصان وأباه، وتشرق ملامحه فجأة، ويكتسى وجهه بنور قدسى خفى المصدر وتذوب نظراته رقة ووداعة، وينسى من حوله، ويحيى للحظات فى حلم وردى جميل، ويهمس دون وعى:

- «آه يا نعيمة. .».

وتنطلق الضحكات من كل جانب، وتنصب عليه تعليقات الأصدقاء:

- روميو ولا أحد يعلم!!

- أنحب يا مقصوف الرقبة؟

- لا شك أنها فى مثل جمالك، والطيور على أشكالها.. يا..
يا دكتور.. فلا يكاد يسمع شيئاً من تعليقاتهم الساخرة بل يظل
سابعاً فى عالم جميل ويهمس:

- «أنتم لا تعرفون نعيمة.. إنها ملاك طاهر.. أرى فى عينيها
الحب والحياة.. ابتسامتها أغلى عندى من كنوز الدنيا.. من أجلها
كل عذاب يهون.. ونعيمة تخطر فى بيتها.. لكنها فى الحقيقة
تعيش فى قلبى.. إنها ابنة خالتى.. قلت لأمى ذات مساء أريد أن
أتزوج نعيمة.. ثارت فى وجهى قائلة: لا تتكلم فى مثل هذه
الأمور لأنك لم تزل صغيراً أولاً.. ولأنك لم تتخرج ثانياً.. ولأن
أباه على قد حاله.. يعنى فقير ثالثاً.. لكن نعيمة شىء آخر.. إنها
تغنىنى عن كل متاع الأرض وذهبها.. إنها الغنى بعينه..»

فيرد أحد الزملاء المشاغبين..

- «لم تخبرنا.. هل تبادللك نعيمة حباً بحب؟؟»

فيصل هذا السؤال مسمعيه، ويفتح عينيه فى قلق، ويفيق رويداً
رويداً من حلمه الجميل، ويهمس:

- «لم أسألها».

- لماذا؟؟

- اعتقدت أنه سؤال لا معنى له . .

- كيف؟؟

- إنها تبسم لى . . تعاملنى برقة . . أذهب لزيارتها فتغرقنى بكرمها ولطفها . . ولماذا لا تحبنى؟؟ أعتقدون أن هناك شكاً فى حبها؟؟ .

فيجيئه صوت من الخلف . .

- «لعل ما تراه منها مجرد مجاملات . . عالم البنات كله أسرار . . إن ما يدور وراء كواليسهن أشبه بما يدور وراء الكواليس فى حكومتنا . .» .

ويقول عبد النافع :

- «لماذا تعتقدون الأمور؟؟ لو كانت تكرهنى لما خفى على ذلك . . وجوه الناس لا تخفى شيئاً . . إننى أقرأ بوضوح كافة وجوه البشر . .» .

قال متخابث :

- «وماذا قرأت فى وجه السجان متولى عندما ضحكت عليه؟؟» .
- متولى كتاب أسود . . ومع ذلك قرأت فيه بداية لعلاقة سيئة . . سيعطينى «علقة ساخنة» فى أقرب فرصة تسنح . . سيظل يضربنى حتى أقول نع . . ع . . ع . .

وضج الجميع بالضحك، أخذوا يصفقون ويشدون شعورهم، ويضربون أرجلهم فى الأرض، ويدقون ظهر عبد النافع الأعرج بقبضاتهم سروراً وإعجاباً بروحه المرحه، وشخصيته الفريدة، وتهدا ثورة الضحك، ويتذكر عبد النافع نعيمة، فتفى وتذوب الضجة فى أذنيه، ولا يعود يسمع سوى ضوتها الرقراق الحنون، وضحكاتها الرقيقة الجذابة، وتتشى روحه بعطرها الملائكى، ويعود يقول:

- دائماً تفسدون متعتى . . دعونى أتكلم عنها . . أنتم لا تعرفونها . . عندما نتزوج فسادعوكم جميعاً لنقضى ليلة سعيدة كلياالى السجن تماماً . . .

صاح صديق:

- «أيها المخبول، هل فى السجن ليال سعيدة؟ . . .»

- لا أنكر أننا نتلقى بعض الإهانات السخيفة لكنها لذيدة . . .
أعتقد ذلك . . لولا هذه المضايقات للملت السجن، ولما شعرت بأننا شوكة فى حلق الطغيان . . . وللسجن يا أولاد فضل كبير على . . . لقد استطاع أن يزيد اشتعال قلبى، ويربطنى برباط أوثق وأعمق بنعيمه . .
فرد أحد الزملاء:

- لو كان أبوك هنا لقال لك . . البعيد عن العين بعيد عن القلب
يا ثور . .

وهدرت موجات الضحك من جديد، وأعجب عبد النافع

بالتعليق البارع، فهب واقفاً، وعانق صاحب التعليق وأخذ يقبله
في حرارة ويهنته على «حسن تعبيره»، ويقول..

- أنت تعرف أبي تماماً.

وقال آخر:

- «لا شك أن بينك وبين نعيمة رسائل غرامية خالدة..».

وبان الاهتمام على وجه عبد النافع، وشرد بضع لحظات ثم قال:

- «حاولت ذلك مراراً.. بصراحة أنا ضعيف جداً في

الإنشاء..».

جربت قرض الشعر ففشلت.. وجربت الزجل ففشلت
أيضاً.. كنت أجلس وفي قلبي كلام كثير جداً.. يملأ آلاف
الصفحات وأمسك بالقلم وأضعه على الورقة فلا يتحرك.. كل
كلمة في ذهني أقل من الواقع الذي يعمر روحي بمراحل كثيرة.. لو
ترجمت أشواقى لكانت أروع قصيدة.. لو استطعت التعبير عن
حبي بالقلم لكنت قيس بن الملوح..».

وعادوا إلى الضحك عندما نطق عبد النافع بكلمة «ابن الملوح»
بطريقته الخاصة..

لكن الباشسججان متولى لم يمهلهم، بل نفخ في صفارته، ثم
صاح:

- «كله . . إلى الزنازين . .» .

ثم اقترب من عبد النافع ، وقال فى حلق بالغ :

- «ادخل يا دكتور البهائم . .» .

رد عليه فى سخرية مرحة :

- «أية خدمة يا جاويش متولى . .» .

فأمسك متولى بشاربه الكث المفتول ، وقال :

- «وشرفى لأريبك . .» .

وهمّ عبد النافع بالكلام ، لكن متولى دفعه داخل الزنزانة المحتضرة الضوء دفعة قوية ، ثم أغلق الباب من الخارج . .

وفى داخل الزنزانة ، جلس عبد النافع على البرش الحشن إلى جوار اثنين من أصدقائه ، لم يزل خيال نعيمة يرف فى قلبه وروحه ، وأخذ يقول :

- «ولما فشلت يا أولاد فى تسطير خطاب يعبر عما فى قلبى . .

اضطرت أن أكتب إليها كلمات قصاراً . . قلت فيه . . إلى العظيمة نعيمة . . تحياتى إليك وإلى خالتى حفظها الله . . إننى أتذكركم فى كل لحظة وأبعث إليكم بحبى الكبير الذى يملأ السماء والأرض . .

ولم أستطع أن أضيف شيئاً . . نظرت إلى الورقة البيضاء النظيفة

عاجزاً . . لكنى أيقنت أن نعيمة تستطيع أن تقرأ خطابى كما أشتهى
ولو كان خالياً من أية كلمة . . .»

- قال زميله وقد غلف الظلام الزنزانة :

- «وهل ردت عليك؟؟»

قال عبد النافع :

- «أنت تعلم أن ضباط السجن يمزقون رسائلنا . . ويخافون من
الشفرات والحب السرى . . لا بد أنها أرسلت الرد وإن كان لم
يصلنى . . بل لقد تخيلت ما كتبته لى . . وأكاد أحفظ عباراتها لفظاً
لفظاً . . .»

هتف زميله فى دهشة :

- «أية عبارات يا مجنون!!»

«مستحيل أن تهمل نعيمة الرد . . إنها مهذبة . . ورقيقة وأنا .
أحبها . . .»

وشعر عبد النافع بيد تقبض على كتفه فى الظلام، فارتجف، ثم
عاد فاطمأن وقد أدرك أنها يد زميله وأخذ زميله يهزه ويقول :

- «يا حبيبى هذا زمان الشيطنة . . أنت على نياتك . . .»

ارتعدت فرائص عبد النافع عندما أخبروه فى اليوم التالى أن
أهله قد أتوا لزيارته ورجح أن أباه قادم، فكيف يستقبله، ودخل

حجرة الزيارة . . كان يتصدرها الضابط ، وساقا عبد النافع
ترتعشان . . لكن قطرات من السكينة نزلت على فؤاده المضطرب
عندما رأى أمه تجلس وحدها لابسة فستانها الأسود ، ونظارتها
الطيبة ، وشالها الذي يخفى جزءاً من وجهها وعنقها ، وانحنى على
يدها يقبلها ، قالت أمه فى نبرات دامعة :

- «أنت شاحب . . ألا تأكلون؟؟» .

- «كيف حالك ياما؟؟ وكيف حال أبى؟؟» .

- «ولماذا لا تخلق لحيتك؟؟» .

- «الموس من الممنوعات . .» .

- «وياقتك منسخة . .» .

وأخذت أمه تتحدث وتتحدث . . وترثى لحال ولدها ، وهو
يلقى إليها نصف انتباه ، كان يفكر فى نعيمة ، ويريد أن يتتبع
الفرصة ، ويعيد الكرة ، ويضرب إلى والدته أن تخطبها له . . يجب
أن يفعل ذلك قبل فوات الأوان . .

ووجد نفسه يقول وقلبه يدق :

- «وكيف حال خالتي؟؟» .

- «بخير . .» .

- «و . . و . . ونعيمة؟؟» .

قالت أمه وكأنها قد تذكرت فجأة . .

- «لقد أعطتني لك خطاباً . .» .

قال عبد النافع فى لهفة :

- «أين؟؟» .

ودست الأم يدها فى جيبها لتخرج الخطاب ، فجاءها صوت الضابط :

- «الخطابات ممنوعة يا ست . .» .

- «لكن . .» .

- «أوامر يا ست . .» .

- «تستطيع أن تقرأه أنت . . أو تقرأه عليه . .» .

ودارت الأرض برأس عبد النافع ، وفكر ، وهذه الكلمات المقدسة لا يصح أن يقرأها غيره ، إنها سر يجب أن يمان ولو دفع فيه حياته .

وقال الضابط :

- «مستحيل يا ست . . تهريب الخطاب عقوبته ستة شهور فى السجن . .» .

- «أعوذ بالله . . خلاص يا سيدى . .» .

وأخرجت الأم الخطاب، ثم راحت تمزقه، وتقول:

«ها هو الخطاب . . بالتأكيد ليس فيه سوى كلام فارغ . .».

وأصاب الذهول عبد النافع، ثم استعاد رشده، وصرخ في أمه:

- «ماذا تفعلين؟؟ إنه عمل شائن . .».

وعادت الأم تقول في دهشة:

- «يبدو أن السجن قد أتلّف أعصابك . .».

- «كيف تمزقين خطاب نعيمة؟؟ ألا تعلمين؟؟».

قالت الأم دون اهتمام:

- «لقد كتبتُه أمامي . . تريد أن تشكرك لأن أباك قد أحضر لها

عريساً مناسباً . . «لقطة» ستطير هي وأمها من الفرح . . أنت تعلم

أنها فقيرة ولا تشغل أى وظيفة . . لم يكن جمالها وحده بقادر على

أن يجلب لها المستقبل المضمون . . إنها مدينة لأبيك بالكثير من

أجل هذا الزوج الطيب . .».

ازداد شحوب وجهه، وأفلتت دمعة على خده، وطأطأ

رأسه . . وشعر بظلمات متكاثفة تثقل على روحه، وانبعث صوت

الضابط كصفارة الإنذار.

- «انتهت الزيارة . .».

النافذة

سمعت أكثر من صديق لى أننى أمارس عملى على صورة جافة وبقلب جامد لا ينبض بأية عاطفة، ولم يكن هذا يعنينى فى قليل أو كثير، وماذا يفعل الطبيب الذى يمضى أغلب ساعات يومه بين مرضاه؟؟ الجميع يتألمون أو يكون وبعضهم يودع الحياة تاركاً وراءه اللوعة والأسى والدموع، كنت أعتقد أن الطبيب لا يمكن أن يعايش تلك المأسى كلها، وإلا صارت حياته مآثم متصلة لا نهاية لها.. أعترف أن بعض زملائى كان يبدو عليهم التأثير الشديد عند اللحظات الرهيبة، لحظات الموت فى الوقت الذى قد أجد نفسى فيه أزاول حياتى العادية دون انفعال يذكر.. إذ سرعان ما أضحك أو أتناول طعامى، أو أرتنى على فراشى متعباً، ولا أكاد أفعل ذلك حتى أغرق فى سبات عميق..

عدت ذات ليلة إلى منزلى واستقبلتنى زوجتى بوجوم ظاهر كانت شديدة شحوب الوجه، ومع ذلك فقد وجدتني أقول لها مداعباً:

- «ماذا أعددت لنا الليلة من طعام؟؟ إني أكاد أموت من الجوع».

قالت فى شيء من الغضب :

- «وابنك يكاد يموت من شدة الحمى . . ».

هتفت . . «الحمى؟؟ دائماً تبالغين . . حتى مجرد نزلة الزكام العادية تجعلك ترتعدين خوفاً . . ثم تنهمر دموعك كالطوفان . . ».

لم أكد أوقع الكشف الطبى على طفلى البالغ من العمر ستة أعوام حتى تنهدت فى ارتياح، وقلت: «هيه، هذا ما توقعته، إنفلونزا . . ».

ومع ذلك فقد شعرت بخوف لم آلفه طول حياتى، حينما رأيت دموع زوجتى تنسكب فى صمت وخاصة عندما همس الصغير إبراهيم: «أنا تعبان يا بابا . . ».

نظرت إلى وجهه المستدير الدقيق الملامح، والعرق يتقاطر على جبينه الشاحب وترددت نظراتى على عينيه القلقتين الزائغتين، ورمقت صدره الذى يعلو ويهبط بصورة واضحة فداخلى قلق غامض . . إنه ابنى . . ابنى الوحيد، ودموع زوجتى تزعجنى لأبعد مدى، حتى أن ثقتى بنفسى وبعلمى أخذت تهتز، وفكرت عند ذاك أن أحمل ولدى لأقرب طبيب . . لكن كيف؟؟ لقد رأيت من قبل

آلاف الحالات التي لا تختلف كثيراً عن حالة ابني وعالجتها بمنتهى الهدوء والثقة، وكانت النتائج على خير ما يرام، وأخيراً حسمت الأمر قائلاً:

- «إنه لا يحتاج إلا لقليل من العقاقير وتنظيم الطعام . . وفي خلال يومين أو ثلاثة سيكون كل شيء على ما يرام . .» .

جفت زوجتي دموعها وإن لم يزايلها شحوب وجهها، وقامت متاثلة لتحضر لى الطعام . . بينما ذهبت الخادمة لإحضار الدواء، حاولت أن أزدرد الطعام فلم أستطع كان يبدو فى فمى كقطع صغيرة من الخشب لا طعم لها .

مرت أيام ثلاثة كأطول ما تمر الأيام، لا أذكر أنى استطعت خلالها أن أقبل على طعامى بشهية، وفقدت النكات التي كنت حريصاً على سماعها كل جمالها ومرحها، كنت أزاول عملى بالمستشفى الذى أعمل به وأنا كالمنوم . . تجردت الحياة من كل ألوانها ومذاقها، تلاشى كل مرح السنين فى لحظات من التعاسة أطول من الزمن . . ولم تسعنى الدنيا من الفرحه وأنا أرى حرارته تنخفض، وحالته تتحسن فى اليوم الرابع، وسرعان ما أخذت ضحكاتى تجلجل فى آفاق المنزل والمستشفى، وكلما تذكرت الأيام الغربية التي مرت بى أسخر من نفسى . . وفى اليوم الخامس ذهب طفلى إلى مدرسته كنت أتطلع إليه فى متعة وسعادة، وأنا أراه

يهول لابسا زيه الخاص ، ومصروفه فى يده اليسرى ، وحقيبتة
الجلدية الصغيرة فى يده اليمنى . . كان يخطو على الأرض ودقات
قلبي تتابع خطواته . . آه من قلب الأب !

ودق جرس التليفون بالمستشفى وجاءنى صوت زوجتى الباكية :
- « عاد إبراهيم من المدرسة بالحالة نفسها . . لست أدري لماذا لا
تسارع بعرضه على إخصائى حميات؟؟ إنك تعذبني » .

تقاطر العرق البارد على جبيني ، ودارت بى الأرض ، ضاق
العالم فى عيني ، ولم أعد أرى إلا طفلى الصغير النحيل الشاحب
راقداً فى فراشه بين الأغطية البيضاء لاهث الأنفاس ، ويهمس لى :
« أنا تعبان يا بابا » ، وألقيت سماعة التليفون فى ذهول ، وخلعت
معطفى الأبيض ، ثم ارتديت سترتى واستأذنت قاصداً بيتى ، كانت
نفسى تعمر بشورة ساحقة ، مصدرها عجز الإنسان أمام أشياء
صغيرة . . لماذا العذاب؟؟ ولماذا المرض والجهد المبذول فى حربه؟؟
ولماذا تحدث أشياء عارضة تفاجئنا ، فتسرق السمات من فوق
شفاهنا ، وتستلب البريق من عيوننا المبتهجة؟؟ لماذا كل هذا يا
ربى؟؟

قلت لزوجتى : « حسناً . . كل شىء على ما يرام . . يبدو أن
الإنفلونزا خلفت وراءها مضاعفات على صورة نزلة شعبية
حادة . . ألا تريته يسعل ويلهث؟؟ » .

نظرت إلىّ فى خوف وحيرة وتمتمت: «لا.. أعرف.. أنت أدري.. لشد ما أنا خائفة على الولد..»، وتقاطرت دموعها عندما سمعته يردد: «أنا تعبنا يا بابا.. عاوز أخف وأروح المدرسة..».

كلماتك أيها الصغير تمزق نياط قلبى، وضراعات عينيك تسحق كبريائى وآمالى، وجبينك الشاحب المبلل بالعرق يورثنى عذاباً ما بعده عذاب.. أه لو تعلم..

وثلاثة أيام أخرى وخفت حدة السعال، وأخذت درجة الحرارة تهبط يوماً بعد يوم تحت تأثير العلاج، وأمام التحسن الطارئ استعدت مرحى وراحة بالى، ولم أدعه يذهب إلى مدرسته إلا بعد أسبوع، ولم يستمر ذهابه سوى يومين، ثم جاءت زوجتى تقول:

- «إن الولد لا يأكل ولا ينام حسب عادته.. ويجلس صامتاً تائهاً لساعات طويلة.. لم يعد طبيعياً.. ألا تقيس له الحرارة؟»

- «أوه.. كفى.. إن أوهامك الملحة لن تدع الولد يشفى».

- «لن تخسر شيئاً إذا ما قست له الحرارة..».

- «حاضر...».

وجمدت نظراتى على العمود الزئبقى اللامع فى الترمومتر.. مستحيل أن يحدث هذا.. إن الحرارة تتجاوز التاسعة والثلاثين..

برغم العلاج والرعاية الزائدة . . ودق قلبي بسرعة . . إنه احتمال رهيب ، ومعناه أيضاً رهيب . . وسمعت الطفل يقول :
- «بطنى توجعنى يا بابا . .» .

قالت زوجتى :

- «لماذا سكت؟؟ هل ارتفعت الحرارة؟؟» .
واختليت بها بعد أن فحصته فحصاً دقيقاً ، وقلت وأنا أرتجف :
- «هناك شك كبير بأنه مصاب بالتيفوئيد . .» .

دقت على صدرها فى ذعر ، وقالت :

- «ألم أقل لك؟؟» .

وانفردت دموعها ، ووجدتنى أنا الآخر أجفف دموعى ، ثم
ارتعيت خائر القوى على أقرب مقعد ، وقلت :

- «يجب أن تتماسكى . . إن مضاعفات هذا المرض اللعين غالباً
لا تظهر إلا فى الأسبوع الثالث . . وبعد دقائق سيكون فى البيت هنا
أخصائى أطفال وأخصائى حميات . . كفى دموعاً . . إننى
أحترق . . لكم تمنيت فى هذه اللحظات أنى لم أتزوج أو أنجب . .
ألا تدركين أنه شىء رهيب؟ . . ارحمىنى . .» .

وأخذت استطرده فى الحديث منفعلاً كمن يهذى :

- «إننى أتعذب . . إنه شيء غريب ! ما هى أسوأ العقوبات فى نظرك؟! السجن؟؟ الإكراه البدنى؟؟ النفى؟ كلا . . لا شيء من هذا على الإطلاق . . إن الأسى النفسى النابع من العجز هو أبشع عقاب . . .»

يبدو أنها لم تكن تستمع إلىّ، لا يهم إن الرجفة الجديدة تجعلنى أثرثر فى حسرة، وأتخبط فى مرارة، وأخيراً وصل الأطباء، وقال فى وقار حزين:

- «إنه التيفوئيد . . وسيتم تحليل الدم الليلة . .»

وامتدت بى الخواطر السوداء . . الطفل المسجى فى فراشه دون حراك . . الصرخات الملتاعة . . النعش . . الرحلة المعذبة من البيت للقبر . . العزاء . . البقية فى حياتك .

ولم أدر كيف أفقت من إغفائى وأنا أصرخ وأبكى كالمجنون:

- «ولدى . . ولدى . . ولدى» .

وفتحت عيني، كانت زوجتى تربت على كتفى ورأسى فى حنان وإشفاق، أما ولدى فقد رفع رأسه فى دهشة الدموع تبلل عينيه، ويقول بصوت باك:

- «بتعمل كده ليه يا بابا . . ما أنا كويس أهه . .»

وتقدمت نحو إبراهيم، وضممته إلى صدرى فى حنان،

وأخذت أقبل رأسه وجبينه ووجهه ويديه ورجليه، ودموعى لا تكف عن التدفق، إن الله أرحم من أن يتزع قلبى ويقذف به فى قبر سحيق . .

- «لأننى أحبك يا إبراهيم . .» .

- «لا أريدك أن تبكى . .» .

- «يا حبيبى . .» .

- «صاحبى عادل كان مريضاً . . وشفى . .» .

تنهدت فى ارتياح، ثم أشعلت سيجارة، شعرت أنى أولد من جديد، وأنزل الله فى قلبى آنذاك قبساً من اليقين والإيمان والاطمئنان، هذا القبس يعرفه الطبيب فى حياته العملية . . كثيراً ما يحدث أن ينبثق فى قلبى نبع اطمئنان على حياة مريض برغم خطورة مرضه . . وبرغم دراستى العلمية فإن ذلك الإلهام قلما يخيب الظن فيه . . أجل . . شعرت أن ولدى إبراهيم على أعتاب الشفاء بعد ثبوت النتيجة بالتحليل، وبعد تعاطى جرعات الدواء الخاصة . . لم أقلق بعد ذلك على ولدى برغم علمى بخطورة الأسبوع الثالث من المرض . .

وعدت من عطلتى بعد شفاء إبراهيم، وأقبلت على عملى فى المستشفى بروح جديدة، كان الجميع يدون دهشتهم لما أبذله من

جهد متصل، زائد، وكانت دهشتهم أكثر وهم يروننى أتألم لدرجة
البكاء عندما يخطف الموت واحداً من المرضى، ومع ذلك فإن
ضحكاتى لم تزل تجلجل فى الأوقات المناسبة . . الأوقات التى
ليس فيها موت . .

آه ما أقساها من تجربة . . كنت أنظر إلى ولدى وهو يجرى
ويلعب مع أقرانه فى حديقة منزلنا، فأتمتم :

- «آه لو تعلم يا إبراهيم . . من خلال مأساتك العنيفة التى
عصفت بى، ووسط ظلامها القاسى الرهيب، اكتشفت النافذة التى
أستطيع أن أطل منها على أحزان التعساء . . إنه شىء رائع وفظيع
فى الوقت نفسه . . » .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
فارس هوازن	٣
أحزان ملك	٦٨
عذراء المدائن	٧٨
مصراع طاغية	٨٩
رجال الله	٩٦
ابن سبيل	١٠٩
قلب الأميرة	١٢٠
المعطف الأسود	١٣٤
العدالة	١٤٦
الحلم الجميل	١٥٤
النافذة	١٦٧
الفهرس	١٧٦